الباب الحادى عشر

أحوال البلاد الإسلامية

(٦٣٨ — ١٠٥٨)

الفصل الأول

الحال الاقتصادية

تنشأ الحضارة من عاملين أساسيين هما الأرض والعمل — ومن موارد الأرض الطبيعية تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته . فمن وراء المظاهر الخارجية لحاشية الملوك والقصور ، والهياكل ، والمدارس ، والآداب ، والترف ، والفنون ، ومن تحتها يقف الإنسان أحد العاملين الأساسيين فى الحضارة ، الإنسان الصياد يأتى بالصيد من الغاب ؛ والحطاب يقطع الأشجار منها ؛ والراعى يرعى قطعانه ويربيها ؛ والفلاح يمهد الأرض ، ويحرثها ، ويزرعها ، ويحصد غلاتها ، ويعنى بالحدائق ، والكروم ، ويربى النحل ، والدواجن والطيور ؛ والمرأة تنهمك فى مئات الصنائع اليدوية والأعمال المنزلية ؛ والعامل ينقب عن المعادن فى باطن الأرض ، والبناء يقيم المنازل ويصنع المركبات والسفن ؛ والصانع ينتج السلع والأدوات ، والبائع الجائل ، أو صاحب الحانوت ، أو التاجر يجتمع بين الصانع والمستهلك ويفرق بينهما ، والمستثمر يمد الصناعات بأمواله المدخرة ؛ والمدير المنفذ يسخر الجهود العضلية ، والمواد الأولية ، والعقول لإنشاء الخدمات وإيجاد السلع . أولئك هم العمال الصابرون القلقون رغم صبرهم الذين تركب على ظهورهم المتمايلة المتأرجحة حضارة العالم المزعزعة .

وكان هؤلاء كلهم جادين عاملين فى بلاد الإسلام . فكان الرجال يربون الماشية ، والخيل ، والإبل ، والمعز ، والفيلة ، والكلاب ؛ ويسطون على عسل النحل ، ولبن الإبل ، والمعز ، والبقر ؛ وينتجون مائة نوع من الحبوب ، والخضر والفاكهة ، والنقل ، والأزهار . لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند فى وقت ما خلال القرن العاشر الميلادى ، وأدخلوها فى بلاد الشام ، وآسية الصغرى ، وفلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية(١) . كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر ، وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند ونشروها فى جميع أنحاء الشرق الأدنى ، ومن تلك البلاد نقلهما الصليبيون إلى أوطانهم(٢) ؛ وكان العرب أول من زرع القطن فى أوروبا(٣) ، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين معظمها جدب قاحل بفضل وسائل الرى المنظم ؛ ولم يجر الخلفاء فى الميدان على سنتهم المألوفة من ترك الشئون الاقتصادية للمشروعات الحرة ، بل كانت الحكومة تشرف على قنوات الرى الرئيسية وتتعهدها بالصيانة والتطهير ، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة ، وماء دجلة إلى أرض فارس ، وشقت قناة كبيرة بين النهرين التوأمين عند بغداد . وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات وتعمير القرى المخربة والضياع التى هجرها سكانها . وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يعد فى أثناء القرن العاشر « إحدى الجنات الأرضية الأربع » — وكانت الثلاث الأخرى هى جنوبى فارس ، وجنوبى العراق ، والإقليم المحيط بدمشق فى بلاد الشام .

وكان الذهب والفضة ، والحديد ، والرصاص ، والزئبق ، والإثمد ، والكبريت ، وحجر الفتيلة (الأسبستوس) ، والرخام ، والحجارة الكريمة تستخرج كلها من باطن الأرض ، وكان الغواصون يستخرجون اللؤلؤ من الخليج الفارسى ؛ واستخدم

العرب النفط والقار فى بعض أعمالهم ، فقد وجد بين محفوظات هرون الرشيد ورقة سجل فيها ثمن النفط والعشب اللذين استخدما فى حرق جثة جعفر(٤) . وكانت الصناعة لا تزال فى مرحلة العمل اليدوى ، يقوم بها الأهلون فى البيوت والحوانيت ، وينتظمون فى طوائف . وقل أن تعثر فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت على مصانع بالمعنى الحديث ، ولا نجد دليلا واضحاً على ارتقاء الفنون الصناعية فوق المرحلة اليدوية والجهود العضلية إذا استثنينا الطواحين الهوائية . فالمسعودى أحد مورخى القرن العاشر يقول إنه شاهد هذه الطواحين فى فارس وبلاد الشرق الأدنى ، مع أننا لانجد أثراً لها فى أوروبا قبل القرن الثانى عشر ، ولعلها كانت هدية أخرى أهداها الشرق الإسلامى إلى أعدائه الصليبيين(٥) . وكان العرب على جانب كبير من المهارة الآلية الفنية ، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التى أهداها هرون الرشيد إلى شارلمان قد صنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش . وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة باباً يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة ، ثم ينسحبون ويغلقون الباب(٦) . وكان الإنتاج بطيئاً ، ولكن الصانع كان فى وسعه أن يظهر مهارته فيما ينتجه من تحف ، وأدوات كاملة الصنع ، وكاد يجعل من كل صناعة فنا . واشتهرت المنسوجات الفارسية ، والشامية ، والمصرية بجمالها الفنى الرائع الذى كان يتطلب من الصناع مهارة وصبراً ؛ فاشتهرت الموصل بنسيج القطن الرفيع « الموصلين » ؛ ودمشق بنسيج التيل « الدمقس » ؛ وعدن بالصوف . واشتهرت دمشق أيضاً بالسيوف المصنوعة من الصلب المسقى ؛ وصيدا وصور بزجاجهما الذى لا يدانيه زجاج فى رقته وصفائه ، وبغداد بزجاجها وخزفها ، والرى بخزفها ، وإبرها ، وأمشاطها ؛ واشتهرت الرقة بزيت الزيتون والصابون ، وفارس بالروائح العطرية والطنافس . وبلغت بلاد آسية الغربية تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعى والتجارى لم تصل إليها بلاد أوروبا الغربية قبل القرن السادس عشر(٧) .

وكانت أهم وسائل النقل البرى هى ظهور الإبل ، والخيل والبغال والرجال ، لكن الحصان كان بوجه عام أثمن من أن يستخدم فى حمل الأثقال ، وفيه يقول أعرابى « لا تسمه حصانى ، بل سمه ولدى ؛ فهو فى عدوه أسرع من الريح ومن طرفة العين . . . وقد بلغ من خفة قدمه أنه يستطيع أن يرقص فوق صدر حبيبتك ولا يؤذيها »(٨) . ومن أجل هذا كان الجمل « سفينة الصحراء » يحمل معظم تجارة العرب ، وكانت قوافل يصل عدد جمالها إلى ٤,٧٠٠ جمل تخترق بلاد العالم الإسلامى . وكانت طرق كبرى تتشعع من بغداد وتمر بالرى ونيسابور ، ومرو ، وبخارى ، وسمرقند ، إلى كاشغر وحدود بلاد الصين ؛ أو إلى البصرة فشيراز ؛ أو إلى الكوفة فالمدينة ، ومكة وعدن ؛ أو إلى ساحل بلاد الشام مجتازة الموصل أو دمشق . وأنشئت النزل ، والخانات ، والمضايف ، وصهاريج الماء فى الطرق ليستقى منها المسافرون والدواب . وكانت التجارة الداخلية واسعة تنتقل فى الأنهار والقنوات . وقد فكر هرون الرشيد فى حفر قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر فى موضع قناة السويس وخططها ، ولكن يحيى البرمكى لم يشجعه على حفرها لأسباب لا نعرفها ولعلها أسباب مالية(٦) . وقد أنشئت على نهر دجلة عند بغداد ، حيث يبلغ عرضه ٧٥٠ قدماً ، ثلاثة جسور محملة على قوارب .

وكانت تجارة عظيمة تمر بهذه الشرايين ، وكان من المزايا الاقتصادية التى يستمتع بها غرب آسية أن حكومة واحدة تسيطر على هذا الإقليم الذى كان فيما مضى مقسما بين أربع دول ؛ فقد كان من آثار هذه الوحدة أن ألغيت فى داخلها جميع العوائد الجمركية وغيرها من العوائق التجارية ، هذا إلى أن العرب لم يكونوا كأشراف الأوربيين يسخرون من التجار ويزدرونهم ، ولهذا لم يلبثوا أن انضموا إلى المسيحيين واليهود والفرس فى نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك بأقل ما يمكن من الربح لكليهما ، فغصت المدائن والبلدان بوسائل النقل والمقايضة والبيع والشراء ؛ وكان البائعون

الجائلون ينادون على سلعهم أمام النوافذ الشبكية ، والحوانيت تعرض بضائعها ، أو تتردد فيها أصداء المساومات ، والموالد والأسواق تغص بالمتاجر والتجار ، والبائعين ، والمشترين ، والشعراء ؛ والقوافل تربط الصين والهند بفارس والشام ومصر ؛ وكانت الثغور أمثال بغداد ، والبصرة ، وعدن ، والقاهرة ، والإسكندرية ، تبعث بالتجار يجوبون البحار . وظلت التجارة الإسلامية هي المسيطرة على بلاد البحر المتوسط إلى أيام الحروب الصليبية ، تنتقل من الشام ومصر فى أحد الطرفين إلى تونس ، وصقلية ، ومراكش وأسپانيا فى الطرف الآخر ، وتمر فى طريقها ببلاد اليونان ، وإيطاليا ، وغالة . وانتزعت السيطرة على البحر الأحمر من بلاد الحبشة ، وتجاوزت بحر الخزر إلى منغوليا ، وصعدت فى نهر الڤلجا Volga من أستراخان إلى نوفجرود ؛ وفنلندة ، واسكنديناوة ، وألمانيا حيث تركت آلافاً من قطع النقود الإسلامية . ولما أن قدمت سفن صينية لزيارة البصرة رد العرب الزيارة بإرسال سفائنهم من الخليج الفارسى إلى الهند وسرنديب ، ثم اجتازت المضيق الذى يفصل بينهما ، وسارت بإزاء الساحل الصينى إلى خنفو (كنتون) ، واستقرت فى هذا الثغر جالية إسلامية ويهودية فى القرن الثامن الميلادى(١٠) ؛ ووصل هذا النشاط التجارى الذى بعث الحياة قوية فى جميع أنحاء البلاد إلى غايته فى القرن العاشر أى فى الوقت الذى تدهورت فيه أحوال أوربا إلى الدرك الأسفل ؛ ولما أن اضمحلت هذه التجارة أبقت آثارها واضحة فى كثير من اللغات الأوربية فأدخلت فيها ألفاظاً مثل bazaar, cravan, magazine, tariff(*)

وكانت الدولة تترك للصناعة والتجارة حريتهما وتساعدهما بإيجاد عملة ثابتة مستقرة إلى حد كبير . وكان الخلفاء الأولون يستخدمون النقود البيزنطية والفارسية حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فسك فى عام ٦٩٥ عملة عربية من الذهب

(*) اللفظان الأولان من أصل عربى وهما التعريفة والمخزن ، الثالث والرابع من أصل فارسى . (المترجم)

هى الدينار وأخرى من الفضة هى الدرهم . ويصف ابن حوقل (حوالى ٩٧٥) صكا كان تعهداً بالدفع قيمته ٤٢,٠٠٠ دينار مصدراً إلى تاجر فى مراكش ؛ وقد اشتقت من كلمة صك الدالة على هذه الوثيقة الكلمة الإنجليزية Check ؛ وكان ذوو المال يستثمرون أموالهم فى الأسفار البحرية والبرية ، ومع أن الربا محرم فى الإسلام فإن المشتغلين بالشئون المالية لم يعدموا وسيلة لأداء جزء من الربح لأصحاب رؤوس الأموال نظير استخدامها فى هذه الأعمال وما تتعرض له من الأخطار كما فعل الأوربيون فيما بعد .

وكان القانون يحرم الاحتكار ولكنه كان منتشرا رغم هذا التحريم ؛ ولم يكد يمضى على موت عمر بن الخطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة وعاشوا فى ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات من الأرقاء(١١) ؛ ويقال إن يحيى البرمكى عرض سبعة آلاف ألف درهم (٥٦٠,٠٠٠ دولار أمريكى) ثمناً لصندوق للآلئ مصنوع من الحجارة الكريمة ، وإن صاحبه أبى أن يبيعه بهذا الثمن ؛ وإن الخليفة المكتفى ، إذا جاز لنا أن نصدق الأرقام التى يوردها مؤرخو العرب ، ترك حين وفاته ما قيمته ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار(*) (٩٤,٥٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى) من الجواهر والعطور(١٢) . ولما أن عقد هرون الرشيد لابنه المأمون على بوران نثرت جدتها على العريس بدرة من اللؤلؤ ، ونثر والدها على المدعوين كرات من المسك تحتوى كل منها على وثيقة تعطى صاحبها الحق فى عبد

(*) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الرومانى دينار يوس ، وكان يحتوى على ٥٦ جراماً من الذهب أو ١٣٥ من الأوقية : أو ما قيمته ٤,٧٢٥ دولار حسب قيمة الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧ . وسنقدره نحن فى هذا الباب تقديراً تقريباً بـ ٤,٧٥ دولارات . أما كلمة درهم فهى مشتقة من كلمة درخمة اليونانية ، وكان الدرهم يحتوى على ثلاثة وأربعين جراماً من الفضة وتبلغ قيمتها نحو $\frac{٨}{١٠}$ من الدولار الأمريكى . ولما كان مقدار ما فى الدرهم من الفضة قد تغير كثيراً فإن تقديرنا لقيمته تقريبى بطبيعة الحال .

أو جواد ، أو ضيعة ، أو هدية أخرى[١٣] . ولما أن صادر المقتـــدر ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار من ثروة ابن الجساس ، بقيت لهذا الصائغ الشهير بعد ذلك ثروة طائلة . وكانت ثروة بعض التجار ذوى الصلة بالأقطار النائية وراء البحار لا تقل عن ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وكان مئات من التجار يملكون بيوتاً تتراوح نفقاتها بين عشرة آلاف وثلاثين ألف درهم (١٤٢٫٥٠٠ دولار)[١٤] .

وكان مركز العبيد فى الطبقة الدنيا من بناء الدولة الاقتصادى . ولربما كان عددهم فى الإسلام بالنسبة لعدد السكان أكثر منه فى المسيحية حيث كان أرقاء الأرض يحلون محل العبيد . ويقول الرواة إن بيت الخليفة المقتدر كان يضم ١١٫٠٠٠ من الخصيان ، وإن موسى بن نصير قبض فى إفريقية على ٣٠٠٫٠٠٠ أسير ، وفى أسبانيا على ٣٠٫٠٠٠ « عذراء » وباع الجميع فى أسواق الرقيق ؛ وإن قتيبة قبض فى سجدیانا على ١٠٠٫٠٠٠ أسر . وخليق بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً كما هى عادة المؤرخين العرب ، وإلى أن من واجبنا ألا نأخذها كما هى وقد عمل الإسلام على تضييق دائرة الاسترقاق وتحسين حال الأرقاء ، فقصر الاسترقاق المشروع على من يؤسرون فى الحرب من غير المسلمين وعلى أبناء الأرقاء أنفسهم . أما المسلم فلا يجوز أن يسترق (كما لم يكن يجوز فى الدين المسيحى أن يسترق المسيحى) . ولكن تجارة الرقيق نشطت على الرغم من هذا وكان قوامها من يقبض عليهم فى الغارات — كالزنوج من بلاد الشرق ، ومن أواسط أفريقية ؛ والأتراك أو الصينيين من التركستان ، والبيض من الروسيا وإيطاليا ، وأسبانيا . وكان للسيد من المسلمين حق الحياة والموت على عبده ، ولكنه كان فى العادة يحسن معاملته إلى حد لم يكن معه مركزه أسوأ من مركز العامل فى المصانع الأوروبية فى القرن التاسع عشر ، بل لعله كان أحسن حالا من ذلك الصانع ، لأنه كان آمن على حياته منه[١٥] ، وكان الأرقاء يقومون بمعظم

الأعمال الدنيا فى المزارع ، وبأكثر الأعمال اليدوية التى لا تحتاج إلى مهارة فى المدن . وكانوا يعملون خدماً فى البيوت ، وكان من رجالهم خصيان ومن النساء جوار فى الحريم . وكانت كثرة الراقصات ، والمغنيات والممثلات من الجوارى . وكان ابن الجارية من سيدها ، وابن المرأة الحرة من عبدها ، حراً من ساعة مولده . وكان يسمح للعبيد أن يتزوجوا وأن يتعلم أبناؤهم إذا أظهروا قدراً كافياً من النباهة . وإن المرء ليدهش من كثرة أبناء العبيد والجوارى الذين كان لهم شأن عظيم فى الحياة العقلية والسياسية فى العالم الإسلامى ، ومن كثرة من أصبحوا منهم ملوكاً وأمراء أمثال محمود الغزنوى والمماليك فى مصر .

ولم يبلغ استغلال العمال فى بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه فى البلاد الوثنية أو المسيحية ، حيث كان الفلاح يكدح طوال ساعات النهار ، ولا يكسب إلا ما يكفى لابتياع خرقة تستر حقويه ، أو إقامة كوخ يعيش فيه ، أو الحصول على طعام لا يكاد يقيم أوده . وكان المتسولون كثيرين فى البلاد الإسلامية ولا يزالون كثيرين فيها إلى الآن ، ولا يزال الكثيرون منهم مخادعين مدعين ؛ ولكن الأسيوى الفقير كان يحميه من الفاقة مهارته فى العمل البطىء ، وقل أن يوجد فى الناس من يضارعه فى تكييف نفسه لظروف التعطل عن العمل . وكانت الصدقات كثيرة متعددة ، وكان فى وسع الفقير إذا ضاقت به السبل أن ينام فى أحسن بناء فى المدينة — وهو مسجدها ، ومع هذا كله فإن حرب الطبقات الأبدية لم تخمد جمرتها قط ، وكان لهيبها يندلع من آن إلى آن فى البلاد الإسلامية (٧٧٨ ، ٧٩٦ ، ٨٠٨ ، ٨٣٨) فى ثورات عنيفة . وكانت هذه الثورات تستتر أحياناً بستار الدين لأن الدين والدولة كانا فى البلاد الإسلامية شيئاً واحداً . وكان منهم شيع كالخرمية والمحيدة تعتنق آراء مزدك الفارسى الشيوعية ؛ ومنهم شيعة أطلقت على نفسها اسم سرخ علم أى « العلم الأحمر »[١٦] ؛ وقام فى عام ٧٧٢ رجل فى خراسان يدعى هاشم المقنع وقال إن الله قد حل فى جسمه ، وإنه بعث

ليعيد شيوعية مزدك . واجتمعت حوله عدة طوائف ، وهزم كثيراً من الجيوش التى أرسلت للقبض عليه ، وظل ثلاثة عشر عاماً حاكماً على بلاد فارس ، ثم قبض عليه أخيراً (٧٨٦) وأعدم . وأثار بابك الخرانى الفتنة نفسها فى عام ٨٣٨ وجمع حوله طائفة سميت المحمرة ، واستولى بها على آزربيجان ، وظلت فى قبضته اثنتين وعشرين سنة ، وهزم عدة جيوش ، وقتل (على حد قول الطبرى) ٢٢٥,٥٠٠ جندى وأسير قبل أن يهزم . وأمر الخليفة المعتصم جلاد بابك نفسه أن يقطع أطرافه طرفاً طرفاً ، ثم خزق أمام قصر الخليفة ، وحملوا رأسه إلى خراسان وطافوا به فى مدنها(١٩) ، ليذكر كل من يراه أن الناس كلهم يولدون غير أحرار وغير أكفاء . .

وكانت أهم « حروب الأرقاء » فى الشرق هى التى أثار عجاجها رجل عربى اسمه على(*) ادعى أنه من نسل على بن أبى طالب زوج فاطمة بنت النبى . وتفصيل ذلك أن عدداً كبيراً من الزنوج كانوا يعملون فى كسح السباخ بالقرب من البصرة ، فأخذ على هذا يذكر لهم سوء ما يلقون من المعاملة ، ويحرضهم على أن يثوروا معه على ساداتهم ، ويعدهم بالتحرر من الرق وبالثروة — وأن يكونوا هم مالكين للعبيد . وأثرت فيهم دعوته ، فاستجابوا لها واستولوا على الزاد والعتاد ، وهزموا الجيوش التى سيرت لقتالهم ، وأنشأوا لهم قرى مستقلة فيها قصور لزعمائهم ، وسجون لأسراهم ، ومساجد لصلواتهم (٨٦٩) . وعرض أصحاب العمل أن يؤدوا لعلى خمسة دنانير عن كل شخص من الثوار يعود إلى عمله إذا أقنعهم بهذه العودة ، فأبى . وحاولت البلاد المحيطة بهم أن تخضعهم بمنع الطعام عنهم ، ولكنهم حين نفدت مؤونتهم هاجموا بلدة الأبلّة ، وحرروا من فيها من الأرقاء وضموهم إلى صفوفهم ، ثم نهبوها وأشعلوا فيها النار (٨٧٠) . وتشجع على بهذا النصر فهاجم عدة بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبى إيران والعراق

(*) اسمه على بن محمد . (المترجم)

حتى دق أبواب بغداد نفسها . وتعطلت التجارة ، وقل الطعام فى العاصمة : وفى عام ٨٧١ استولى المهلبى قائد الزنوج على البصرة ، وذبح ثلثمائة ألف من أهلها وسبى الجنود الزنوج آلافاً من النساء واسترقوا آلافاً من الأطفال البيض بعضهم من بنى هاشم أنفسهم — إذ صدقنا أقوال المؤرخين . وظلت نار الثورة مشتعلة عشر سنين ، سيرت فى خلالها عدة جيوش لتقليم أظفارها ، وعرض على من يفرون من صفوف الثوار المال والعفو ، فخرج على على كثيرون من رجاله ، وانضموا إلى جيوش الحكومة . ثم حوصر من بقى منهم ، وضيق عليهم الخناق ، وسلط عليهم الرصاص المصهور و«النار اليونانية» ، وهى مشاعل من النفط الملتهب ، وانتهى الأمر بأن دخل جيش يقوده الوزير الموفق إلى مدينة الثوار ، وتغلب على ما لقيه من المقاومة ، وقتل علياً وحمل رأسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته (٨٨٣)[٢٠] . ودامت هذه الثورة أربعة عشر عاماً حاق فيها الخطر بجميع المقومات الاقتصادية والسياسية فى البلاد الشرقية الإسلامية . وانتهز أحمد بن طولون والى مصر هذا الاضطراب فاستقل بأغنى ولايات الخلافة الإسلامية ؛

الفصل الثانى

الإيمـــان

يلى المال والنساء فى شهوات الإنسان رغبته فى النجاة من العذاب فى الدار الآخرة . فإذا امتلأت المعدة بالطعام ، وأشبع الإنسان غريزته الجنسية ، وجد متسعاً من الوقت ينصرف فيه إلى الله .

ولقد كان المسلمون كثيرى التفكير فى ربهم ، وكانت مبادئهم الأخلاقية وشريعتهم ، وحكومتهم ، قائمة كلها على أساس الدين . والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها ، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ويتطلب الجزء الثانى من هذا الأساس الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به ، ولهذا فإن المسلم المتمسك بدينه يؤمن كذلك بالجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، والبعث ، والقضاء والقدر ، ويوم الحساب . وقواعد الإسلام بعد الشهادتين هى الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت . ويؤمن المسلم كذلك برسالة الأنبياء الذين سبقوا محمداً وبما نزل عليهم من الوحى « ولكل أمة رسول » (سورة يونس ٤٨) . ويعتقد بعض المسلمين أن عدة أولئك الرسل ٢٢٤٠٠٠ ، ولكن يبدو أن محمداً كان يرى أن ، إبراهيم وموسى ، وعيسى ، هم وحدهم الذين نطقوا بكلمات الله . ولهذا فإن على المسلم أن يؤمن بالتوراة والإنجيل ، ويعتقد أن ما ورد فيهما من وحى الله ، فإذا ما اختلفا عن القرآن فى شىء فعليه أن يعتقد أن سبب ذلك ما حدث فيهما من تغيير متعمد أو غير متعمد . وعليه أن يؤمن أيضاً بأن القرآن قد حل محل غيره من الكتب السماوية ، وأن محمداً خير أنبياء الله ورسله . والمسلمون يعتقدون أن محمداً بشر من خلق الله ، ولكن احترامهم إياه لا يقل عن احترام النصارى للمسيح ، وفى ذلك يقول أحد الصالحين من المسلمين الأقدمين

إنه لو كان حياً فى زمان النبى لما تركه يطأ الأرض بقدمه المباركة ولحمله على كتفيه أينما أراد .

والمسلمون الصالحون لا يطيعون ما ورد فى القرآن وحده ، بل يعملون أيضاً بالأحاديث والسنن النبوية التى احتفظ بها علماؤهم على مر الأجيال والقرون . ذلك أن المسلمين قد واجهوا على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والتشريع ، لا يجدون لها جواباً صريحاً فى القرآن . كذلك وردت فى القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول وتحتاج إلى إيضاح . ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله النبي أو الصحابة وما قالوه فى أمثال هذه الموضوعات . ومن أجل ذلك وجه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث ، وامتنعوا عن تدوينها فى القرن الأول من الهجرة(*) . وأنشأوا مدارس للحديث فى مختلف المدن يلقون فيها دروساً عامة فى الحديث والسنن النبوية ، ولم يكن من غير المألوف أن يسافر الواحد منهم من الأندلس إلى بلاد

(*) يقول المؤلف إن المسلمين امتنعوا عن تدوين أحاديث الرسول فى القرن الأول الهجرى ، والحق أنه كان من الصحابة من لا يرى تدوين الحديث لكى تكون الهمة مقصورة على القرآن وحده ، ولكن من الحق أيضاً أن تدوين الحديث بدئ منذ فجر الإسلام فى القرن الأول ، بل أن بعض ذلك يرجع إلى عهد الرسول نفسه .

لقد جاء فى صحيح البخارى أن الرسول أمر فكتبت خطبته التى خطبها يوم فتح مكة ، وفى هذا الباب أيضا نجد أبا هريرة يقول : ما من أحد أحفظ منى لحديث رسول الله صلى عليه وسلم ولا أكثر منى رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبى صلى الله عليه رسلم ولم أكن أكتب . وفى سنن أبى داور ومسند الإمام أحمد بن حنبل أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى الغضب والرضا ! فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى عليه وسلم فقال : « اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا حق » وأومأ بإصبعه إلى فيه حين قال ذلك . راجع مسند أحمد ، ج ٢ : ١٦٢ و ١٩٢ ، سنن أبى داود ، ج ٢ : ٢٢ وجامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر ، ج ١ : ٧١ . وراجع أيضاً بحثا قيما فى ذلك ، للعلامة السيد سليمان عبد القدوس ، الرسالة المحمدية طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ ص ٥٣ وما بعدها .

الفرس ليستمع إلى حديث من أحد رواته . وبهذه الطريقة تجمعت طائفة من السنن الشفوية إلى جانب القرآن شبيهة بالمشنا والجمارا اللذين تجمعا حول التوراة ، وفعل البخارى بهذه الأحاديث فى عام ٨٧ ما فعل يهودا هاناسى بشرائع اليهود غير المكتوبة فى عام ٨٩ ، فقد واصل البحث عدة سنين طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامى من مصر إلى التركستان حتى جمع نحو ستمائة ألف حديث اختار منها بعد تمحيصها ونقدها ٧٢٧٥ ونشرها فى صحيحة منسوبة فى سلسلة طويلة من الإسناد إلى أحد الصحابة أو إلى النبى نفسه .

تُلقى الكثير من أحاديث النبى ضوءا جديداً على العقائد الإسلامية . نعم إن محمداً لم يقل قط إنه يأتى بمعجزات ، ولكن ثمة أحاديث تروى بعض ما قام به من خوارق العادات : كيف أطعم عدداً كبيراً من الناس من طعام لا يكاد يكفى شخصاً واحداً ، وكيف أخرج الشياطين من جسم بعض الناس ، وكيف أنزل الغيث وحجب المطر بصلاة واحدة ، وكيف مَسَّ ضرع ماعز جافة فأدرت اللبن ، وكيف شُفِىَ المرضى بلمس ثيابه أو شعر رأسه بعد قصه .

وتحث بعض الأحاديث على حب الأعداء ، وإن كانت آراء محمد فى هذه الناحية أشد من آراء المسيح . وقد أخذت الصلاة الربانية من الإنجيل بعد أن أدخل عليها بعض التعديل(*) كما يعزى إلى محمد حديث يروى قصص الزراع ، وضيوف العرس وعمال الكرم ، وقصارى القول أن رواة الأحاديث قد وصفوا النبى بخير ما نجده فى المسيحية من فضائل على الرغم من زوجاته التسع ، ويقول بعض النقاد المسلمين : إن كثيراً من الأحاديث قد دستها على النبى الدعاوة الأموية أو العباسية أو غيرهما . وقد اعترف ابن العوجاء الذى أعدم فى الكوفة سنة ٢٧٢ أنه وضع بنفسه أربعة آلاف حديث . وثمة عدد قليل من المتشككين الذين لا يصدقون معظم الأحاديث ومنهم من زيف بعضها وصاغها فى صيغة الأحاديث الصحيحة .

(*) الصلاة الربانية عند المسيحيين هى التى تبدأ بقولهم : أبانا الذى فى السموات . . . الخ »

ومع هذا كله فإن تصديق الأحاديث الواردة فى إحدى المجموعات المتفق على صحتها ، من الصفات التى يمتاز بها المسلمون المتمسكون بدينهم والذين يطلق عليهم اسم السنيين . ومن هذه الأحاديث حديث يسأل فيه جبريل النبى عن ماهية الإسلام فيجيبه النبى بأن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج هى الواجباب الأربعة المفروضة على كل مسلم ، وهى مضافة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله « أركان الإسلام الخمسة » .

ولا بد أن يسبق الصلاة الوضوء ، وإذ كانت الصلاة تؤدى خمس مرات فى اليوم فقد أصبحت النظافة من الإيمان بحق . فالإسلام كاليهودية يدعو إلى العناية بصحة الجسم وتقويم الخلق ، وهما فى هذه الناحية يعملان بالمبدإ القائل إن الإنسان لا يعقل الشىء المعقول إلا إذا كان له سند من الدين . وكان النبى يحذر المسلمين من إهمال الوضوء ويقول لهم إن الله لا يقبل الصلاة بلا وضوء ؛ ويحث على تنظيف الأسنان قبل الصلاة ، وإن لم يجعلها من فرائض الوضوء ؛ أما تلك الفرائض فهى : غسل الوجه واليدين والقدمين(*) (سورة المائدة ٦) وعلى الجُنُب أن يستحم ، وعلى المرأة التى خرجت من الحيض ، أو الوضع ، أن تتطهر قبل الصلاة . ويصعد المؤذن فى بلاد الإسلام المئذنة عند طلوع الفجر ، وفى منتصف النهار ، ووقت العصر ، وعند غروب الشمس ، وفى المساء ، ويدعو المسلمين إلى الصلاة بقوله « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد

(*) ومسح الرأس . (المترجم)

أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ألا ما أقوى هذه الدعوة ، وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل مطلع الشمس ، وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة ، وما أعظم وأجل أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جل جلاله فى سكون الليل ، وما أحلى وقع صوت المؤذنين على الآذان ، آذان المسلمين وغير المسلمين ، وهم يدعون النفوس الحبيسة فى الأجسام الأرضية من فوق آلاف المساجد أن تتوجه إلى واهب الحياة والعقل ، وتتصل به ذلك الاتصال الروحى الجليل . ففى هذه الأوقات الخمسة يجب على كل مسلم فى جميع بقاع الأرض أن يقف كل عمل أيا كان ، ويتطهر ، ويولى وجهه نحو مكة والكعبة ويقيم الصلوات القصيرة ، بنفس الصورة الدقيقة التى يؤديها بها غيره من المسلمين ، كلما انتقلت الشمس من مرحلة إلى مرحلة فى حركتها الظاهرة حول الأرض .

فمن أمكنه وقته ، وشاءت إرادته ، ذهب إلى المسجد يؤدى الصلاة ، والمساجد تظل فى العادة مفتوحة الأبواب طول النهار ، يؤمها كل مسلم صالح أو زنديق ليتوضأ أو يصلى أو يستريح . وهناك تحت سقفها الظليلة كان المدرسون يعلمون التلاميذ ، والقضاة يفصلون فى الخصومات ، والخلفاء يعلنون سياستهم أو أوامرهم ، وكان الناس يجتمعون فيها ليتحدثوا فى كل ما يعنيهم ، ويستمعوا إلى الأخبار ويفاوضوا فى الأعمال التجارية والمالية فى بعض الأحيان . ذلك أن المسجد كان كالبيعة عند اليهود ، والكنيسة عند المسيحيين ، مركز الحياة اليومية ، والبيت العام للمجتمع كله . وفى يوم الجمعة قبل أن ينتصف النهار بنصف ساعة أو نحوها يقوم المؤذن ويصلى على النبى ويدعو لأسرته وإلى الصحابة ، ويدعو

المسلمين إلى الصلاة (*) . ويستحب فى هذا اليوم أن يستحم المصلون ، ويلبسوا أثواباً نظيفة ، ويتعطروا ، قبل المجيء إلى المسجد ، فإن لم يكونوا قد اغتسلوا فإن عليهم أن يتوضأوا فى المسجد (**) .

وقد جرت العادة أن تبقى النساء فى بيوتهن حين يذهب الرجال إلى المساجد ، خشية أن يشغل وجودهن وإن كن محجبات بعض الرجال عن التوجه بأرواحهم كلها إلى الله . ويترك المصلون أحذيتهم عند باب المسجد ، ويدخلونه حفاة أو بالأخفاف أو الجوارب ، فإذا حان موعد الصلاة وقفوا جنباً إلى جنب صفا واحداً أو عدة صفوف ، وولوا وجههم نحو المحراب الذى يعين موضع القبلة أو اتجاه مكة . ويقوم الإمام ويعظ الناس بخطبة قصيرة ثم تقام الصلاة ويتلو الإمام آيات من القرآن ، وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة ، ويؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات . وليس فى صلاة المسلمين أناشيد ، أو مواكب ، أو قداس ، أو مقاعد مستأجرة ، ذلك أن الدين والدولة شيء واحد عند المسلمين ؛ وهذا فإن الشئون الدينية ينفق عليها من الأموال العامة . وليس الإمام كاهنا كالقس عند المسيحيين بل هو رجل عادى يكسب قوته بعمل دنيوى يؤديه ، ويعين فى المسجد فترة من الزمان ، ويتقاضى أجراً قليلا ليؤم المصلين (+) ؛ فالدين الإسلامى لا يعترف بالكهانة والقسوسة . والمسلمون بعد صلاة الجمعة أحرار يستطيع من أراد منهم أن يؤدى عمله المعتاد كما يؤديه فى أى يوم آخر . وحسبهم أنهم قد توجهوا إلى ربهم ساعة من الزمان تطهرت فيها نفوسهم وسمت فوق

(*) يحدث هذا أحياناً ولكن الآذان الشرعى مرة واحدة ويقتصر على التكبير والشهادتين والدعوة إلى الصلاة والفلاح والتكبير والشهادة . (ى)

(**) ليس على المسلم أن يتوضأ فى المسجد بل الذى عليه أن يكون متوضئا قبل الصلاة فى البيت أو فى المسجد عل حد سواء .

(+) ومن الأئمة من لا يتقاضى أجراً . وفى الصلوات الخمس يستطيع أى إنسان أن يؤم المصلين إن كان أهلا لهذه الإمامة . (المترجم)

المشاغل الاقتصادية والمنازعات الاجتماعية ، وتألفت قلوبهم من حيث لايشعرون باشتراكهم فى هذه الشعائر العامة .

والواجب الثانى المفروض على المسلم هو أداء الزكاة . لقد كان النبى ينظر إلى الأغنياء كما ينظر إليهم المسيح ، ويقول بعضهم إنه بدأ حياته مصلحا اجتماعيا اشمأزت نفسه مما رآه من الفروق الواسعة بين ترف طائفة التجار من الأشراف وفقر عامة الشعب ، ويبدو أن معظم أتباعه فى أول الأمر كانوا من الفقراء .

وكان من أول ما قام به من الأعمال فى المدينة أن فرض ضريبة سنوية مقدارها اثنان ونصف فى المائة على جميع الأملاك المنقولة ، لمعونة الفقراء(*) . وكان فى الدولة الإسلامية موظفون مختصون يقومون بجمع الزكاة وتوزيعها على أصحابها . وكان جزء من حصيلتها ينفق فى بناء المساجد ، وفى أداء نفقات الحكومة وتجهيز الجيوش . ولكن الحرب كانت تأتى بالغنائم التى تزيد كثيراً من نصيب الفقراء . وما أكثر ما يُروى من قصص المسلمين الأسخياء الذين جادوا بأموالهم على الفقراء ، فالحسن بن على مثلا يروى عنه أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات فى حياته وأنه فى مرتين وهبهم كل ما يملك .

والواجب الثالث على المسلمين هو صوم رمضان . ونقول هنا إن الخمر ، والميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والكلب ، محرمة بوجه عام على المسلمين ، ولكن الإسلام من هذه الناحية أقل صرامة من اليهودية ، فهو يبيح أكل الطعام المحرم عند الضرورة ، وسئل محمد مرة عن جبن لذيذ يحتوى على لحم محرم ، فقال

(*) فرضت الزكاة بالمدينة حقا وفى السنة الثانية من الهجرة ، ولكنها لاتسمى ضريبة بل تسمى « زكاة » ومعنى الزكاة فى اللغة : الطهارة والنماء والبركة ، وإخراج المقدار الواجب شرعا يطهر به مال المزكى وينميه حقا .

أما المقدار الذى ذكره المؤلف وهو اثنان ونصف فى المائة فهو زكاة المال النقدي ، وفى سائر الأموال كالزروع والثمار والحيوان مقادير أخره محددة معروفة فى كتب الفقه . (ى)

للسائل : « اذكروا اسم الله وكلوا(*) » . وكان يكره الزهد الشديد ويحرم الرهبنة على المسلمين (سورة الأعراف ٣٢) فقد أحل للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها . ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة ، ولتصح به أجسامهم من جهة أخرى . وكان النبى بعد أن أقام فى المدينة بضعة أشهر قد رأى اليهود يصومون صومهم السنوى فأمر أتباعه أن يحذوا حذوهم لعله بذلك يستميلهم إلى الإسلام ، فلما تبين أنه لم يستملهم إليه استبدل به صوم رمضان ، فإذا أهل هذا الشهر وعدته تسعة وعشرون يوما فى بعض السنين وثلاثون فى بعضها الآخر أمسك المسلمون فى أثناء النهار عن الطعام والشراب ، والتدخين وعن الصلات الجنسية . وأبيح الإفطار للمرضى ، والمسافرين المتعبين ، والصغار ، والشيوخ الضعاف ، والحاملات والمراضع ، ولما فرض الصيام فى أول الأمر كان شهر رمضان فى فصل الشتاء حين يقصر النهار ، ولكن رمضان يقع فى فصل الصيف كل ثلاث وثلاثين سنة ، فيطول ويشتد الظمأ فى حر البلاد الشرقية حتى يكون أشبه شىء بالعذاب . ولكن المسلم الصالح يتحمل الصيام . ويفطر المسلمون أثناء الليل فيأكلون ، ويشربون ، ويدخنون ، ويباشرون النساء حتى مطلع الفجر ، وتظل المخازن والحوانيت مفتحة الأبواب طوال الليل تؤمها الجماهير ليأكلوا ويستمتعوا ، والفقراء يعملون كعادتهم فى أيام الصوم ، أما الأغنياء ففى وسعهم أن ييسروا الأمر على أنفسهم بالنوم فى أثناء النهار .

ويقضى الأتقياء الصالحون الليالى العشر الأخيرة من رمضان فى المساجد

(*) عن ابن عباس قال : جىء إلى النبى صلى الله عليه وسلم بجبنة فى غزاة فقال : أين صنعت هذه ؟ قالوا : بفارس ، ونحن نرى أنه يجعل فيها ميتة ، فقال : اطعنوا فيها بسكين ، واذكروا اسم الله وكلوا . رواه أحمد والبزار والطبرانى ، وواضح هنا أن ذلك كان لضرورة وهى الغزاة . (المترجم)

فهم يعتقدون أن القرآن قد نزل على النبي فى إحدى هذه الليالى ، ولهذا فإن هذه الليلة عندهم خير من ألف شهر ، وإذ كانوا لا يعرفون أى الليالى العشر هى ليلة القدر فإن كثيراً من المسلين يحيونها كلها . فإذا انقضى شهر رمضان احتفل المسلمون بعيد الفطر ، فيستحمون ، ويلبسون ثياباً جديدة ، ويهنئ به بعضهم بعضا ، ويخرجون الزكاة ، والهدايا ويزورون قبور الموتى .

والواجب الرابع المفروض على المسلمين هو الحج . ولقد كان الحج إلى الأماكن المقدسة من السنن المألوفة فى بلاد الشرق ، فكان اليهود يأملون أن يروا صهيون فى يوم من الأيام كما كان الصالحون من العرب عبدة الأوثان قبل النبي بزمن طويل يحجون إلى الكعبة ، وأقر الإسلام هذه السنّة القديمة ، وكان هذا الإقرار من الأسباب التى ساعدت على انتشار الإسلام فى جميع أنحاء الجزيرة العربية . وبذلك أصبحت الكعبة ، بعد أن طهرت من الأصنام ، بيت الله . وفرض على كل مسلم (عدا المرضى والفقراء) أن يحجوا إليها ، كلما استطاعوا(*) ، ولكن سرعان ما فسر هذا بأنه يعنى مرة فى العمر . ولما أن انتشر الإسلام فى أطراف العالم اقتصر أداء هذه الفريضة على قلة منهم ، وفى مكة نفسها بعض المسلمين الذين لم يزوروا الكعبة قط .

وقد وصف دوتى Doughty ، وصفا لا يضارعه فى روعته وصف سواه ، منظر قافلة الحجاج وهى تجتاز الصحراء فى حر الشمس اللافح ، ولهيب الرمال المحرقة ، وتتألف من سبعة آلاف من المؤمنين أو أقل أو أكثر من هذا العدد ، راجلين

(*) لم يفرض الحج إلا مرة واحدة فى العمر . (ى)

ولعل المؤلف قد أخذ قوله هذا من إضافة « من استطاع إليه سبيلا » إلى الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو فهم خاطئ بلا شك ، إذ المقصود بهذه العبارة أن يؤدى الفريضة من يستطيع ، أى من تمكنه من أدائها حالته الصحية وموارده وغيرها من ظروفه . (المترجم)

أو ممتطين صهوة الجياد ، أو ظهور الحمير ، أو البغال ، أو الهوادج الفخمة ، ولكن كثرتهم الغالبة تهتز على ظهور الإبل ، وتنحنى بأجسامها فى كل خطوة من خطواتها الطويلة . . . وتسجد خمسين مرة فى كل دقيقة أرادت ذلك أو لم ترده فى اتجاه مكة ، مجتازة ثلاثين ميلا فى اليوم ، وخمسين ميلا فى بعض الأحيان ، حتى تصل إلى واحة تحط فيها رحالها لتستريح . وفى هذا السير الشاق يمرض كثير من الحجاج ويتخلفون ، ومنهم من يموتون فيتركون(*) تنهشهم السباع المترصدة فى الطريق ، أو يحتضرون فيتركون ليموتوا على مهل ، ويزور الحجاج فى المدينة قبر النبى ، ويشهدون قبر أبى بكر وقبر عمر فى مسجد الرسول ، ويعتقد بعضهم أن فى جوار هذه القبور مكان احتفظ به لعيسى بن مريم .

فإذا أشرفت القافلة على مكة نصبت خيامها خارج أسوارها لأن البلدة نفسها حرم مقدس . ثم يستحم الحجاج ويحرمون فيلبسون أثواباً بيضاء غير مخيطة ، ويركبون أو يسيرون على أقدامهم مسافة طويلة ، يبحثون عن مساكن لهم فى أحياء المدينة(**) . ويفرض عليهم طوال إقامتهم فى مكة أن يمتنعوا عن جميع المنازعات ، وعن العلاقات الجنسية ، وعن كل ما هو حرام(†) ، وتصبح البلدة

(*) لا شك فى أن هذا الوصف لا ينطبق كله على الكثرة الغالبة من الحجاج فى هذه الأيام أيام الطائرات والسيارات والطرق المعبدة ووسائل الراحة المهيأة لجميع الحجاج . (المترجم)

(**) يحتاج هذا الوصف إلى شىء من الدقة ، فإن كون مكة حرما مقدسا لا يمنع أن يدخلها الحجاج بقوافلهم ، بل هذا ما يحدث فعلا ، ثم إن الإحرام يكون قبل ذلك لا بعده وله مواقيت — وأمكنة معينة معروفة لا يجاوزها الحاج إلا محرما مهما كان البلد الآتى منه ، وأقربها إلى « مكة » بينه وبينها مرحلتان (راجع مثلا دور الحكام للقاضى مثلا خسرو الحنفى ج ١ ص ٢١٨) . (ى)

(†) ليس فرضا على الحجاج الامتناع عن الصلات الجنسية طول مدة إقامته بمكة ، بل ذلك يكون ما دام محرما فقط ، كما هو معروف فى كتب الفقه (انظر التعليق السابق) هذا وليس الامتناع عن المحرمات مقصورا على أيام الحج ، بل هو مفروض على المسلمين فى جميع الأوقات . (ى)

المقدسة فى أشهر الحج ملتقى المسلمين من كافة الأمم ، والأجناس والطبقات ، يشتركون كلهم على قدم المساواة فى مناسك الحج وفى الصلاة ، فإذا دخلوا المسجد الحرام الفسيح الجنبات شغلتهم نشوتهم الروحية عن ملاحظة المآذن الرفيعة التى فوق الجدران ، وعما فيه من عقود وعمد . وعند بئر زمزم التى يقال عنها إنها أطفأت ظمأ إسماعيل يقفون خاشعين ، ويشرب الحجاج من مائها مهما تكن حرارته ومهما يكن تأثيره ، ومنهم من يحمل هذا الماء معه إلى إلى وطنه ليشرب منه فى بعض أيامه وحين تحضره الوفاة(*) . ويصل الحجاج آخر الأمر ، وكلهم عيون شاخصة يلهثون من التعب ، إلى قلب المسجد ، إلى الكعبة نفسها ، وهى بناء صغير الحجم مضاء من داخله بمصابيح من الفضة معلقة فى سقفه ، ومكسوة جدرانه الخارجية بكسوة من الحرير الثمين ، وفى أحد أركانه الحجر الأسود الشهير . ويطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة ، ويقبل الحجرا الأسود أو يلمسه أو ينحنى تعظيما له . ومن الحجاج من يقضون الليلة كلها فى داخل المسجد غير عابئين بما عانوا من شدة التعب والسهر ، يجلسون على أبسطته يتحدثون ، ويصلون ويفكرون فى دهشة ونشوة فى الغرض الذى جاءوا من أجله .

وفى اليوم الثانى(**) يسعى الحجاج سبع مرات بين الصفا والمروة ، وهما فى خارج المدينة ، إحياء لذكرى هاجر وهى تبحث عن الماء لتروى به ولدها . وفى اليوم السابع يخرج من يبغون « الحج الأكبر » إلى جبل عرفات الذى يبعد عن

(*) من الحجاج من يصر على التزود من ماء زمزم والاحتفاظ بشىء منه فى عودته إلى بلده ولكنا لانعلم ولا نظن أن منهم من يستبقى شيئا منه ليشربه حين تحضره الوفاة . (ى)

(**) السعى بين الصفا والمروة لا يكون فى اليوم الثانى من الوصول إلى مكة ، بل إن هذا السعى واجب يوم وصوله إليها وطوافة بالكعبة بالمسجد الحرام . وهذا الطواف يسمى طواف القدوم أو طواف التحية أيضا (راجع الكتاب السابق ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٤) . (ى)

بكة مسيرة سبع ساعات — وهم يستمعون إلى خطبة تدوم ثلاث ساعات(*) ، ثم يقفون وهم عائدون فى منتصف الطريق ويقضون ليلة فى المزدلفة . .وفى اليوم الثامن يهرعون إلى منى ويرمون بالجمرات ثلاث علامات أو ثلاثة أعمدة ، اعتقاداً منهم بأن إبراهيم قد رجم الشيطان بهذه الطريقة حينما حاول أن يثنيه عن ذبح ولده . . . وفى اليوم الثامن يضحون بحمل أو جمل أو غيرهما من الماشية ذات القرون ، ويأكلون بعض لحومها ويوزعون الصدقات(**) ، وهذا الحفل هو أهم شعائر الحج ويحيون به ما فعله النبي نفسه فى مثل ذلك الوقت من حياته ، والمسلمون فى جميع أنحاء العالم يحتفلون بعيد الأضحى فينحرون الذبائح فى هذا اليوم العاشر من شهر ذى الحجة ويوزعون اللحوم والصدقات تقرباً لله . وبعد هذا يحلق الحجاج شعورهم ويقصون أظافرهم ويدفنون هذه البقايا فى الرمال ، وبذلك ينتهى الحج الأكبر ، ولكنَّ الحجاج فى العادة يزورون الكعبة مرة أخرى قبل أن يعودوا إلى مخيم القافلة . وهناك يعودون إلى حالتهم الأولى ويلبسون ثيابهم العادية ويبدأون رحلتهم الطويلة إلى أوطانهم مطمئنى البال فخورين بما وفقوا إليه من عمل صالح .

ولهذه الفريضة العظيمة أغراض وفوائد كثيرة . فهى تقوى إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم ، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفى الجماعى بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين ، شأنها فى هذا شأن حج اليهود إلى أورشليم ، وحج المسيحيين إلى هذه المدينة وإلى رومة . فالحج وما ينطوى عليه من مناسك التى

(*) يخطب الإمام فى موسم الحج ثلاث خطب ، ولكل منها مناسبة يعلم الحجاج فيها ما هم مقبلون عليه من الحج وأعماله وليس منها خطبة واحدة تدوم ثلاث ساعات ، والذين يدرسون الفقه الإسلامى وسيرة الرسول ، يعرفون أن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تجمع بين الإيجاز وكل ما تجب معرفته .

(**) لا تكون الأضحية فى اليوم الثامن من ذى الحجة بل تكون فى اليوم العاشر أى يوم العيد كما هو معروف .

والورع يجمع بين بدو الصحراء والفقراء وتجار المدن الأثرياء ، وبين البربر وزنوج إفريقية ، والشوام ، والفرس ، والأتراك ، والتتار ، والهنود المسلمين ، والصينيين والمصريين ، وغيرهم من الشعوب الإسلامية — يرتدون كلهم ثياباً بسيطة واحدة ، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهى اللغة العربية ، ولعل هذا هو السبب فى ضعف حدة الفوارق العنصرية فى الإسلام .

وقد يبدو لغير المسلمين أن الطواف حول الكعبة من الأعمال التى لا تنطبق على العقل . ولكن المسلم يبتسم حين يرى أمثال هذه العادة فى الأديان الأخرى ، ويهوله أن يرى المسيحيين فى إحدى شعائرهم « يأكلون الله » . فالمسلمون لا يفهمون من هذا الطواف إلا أنه رمز خارجى لصلة روحية وغذاء روحى . وفى الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعز على الأفهام .

والأديان جميعها مهما يكن من نبل أصولها ، لا تلبث أن تحشر فيها طائفة من الخرافات لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى ، وإنما تنشأ بطبيعتها من العقول التى خيم عليها وأنهكها تعب الجسم ورهبة الروح فى كفاحها للخلود . لهذا نرى أن معظم المسلمين(*) يؤمنون بالسحر(**) ، وقلما يشكون فى قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب والكشف على الكنوز المخبوءة ، وغرس الحب فى النفوس وتعذيب الأعداء ، وشفاء المرضى ، واتقاء الحسد . ومنهم من يعتقد فى قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان أو نبات ، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة . وتلك العقائد هى المحور الذى تدور عليه قصص ألف ليلة . ففيها ترى الأرواح فى كل مكان تحتال بضروب السحر وغيره على الأحياء ، وتستولد النساء غير الحريصات ما لا يشتهين من الأبناء ويلبس معظم المسلمين(٣) كما يلبس نصف المسيحيين تمائم لترد عنهم ضروبا مختلفة من الشرور ، ويعتقدون

(*) يقصد المؤلف بقوله معظم المسلمين غير المتعلمين . ويلاحظ أنه يقول : إن هذه كلها ليست من الدين بل هى من الخرافات التى لا صلة بينها وبين مبادئه الأولى . (المترجم)

(**) أصح من هذا أن يقول : عامة المسلمين أو جهالهم الذين يؤمنون بالسحر كما يؤمن به الجهال فى كل أمة . (المترجم)

أن من الأيام ما هو سعد ومنها ما هو نحسن ، وأن الأحلام قد تنبئ عن المستقبل ، وأن الله قد يتحدث إلى الإنسان فى الأحلام . ويؤمن العامة فى مختلف بلاد الإسلام كما يؤمن أمثالهم فى مختلف البلاد المسيحية بالتنجيم ؛ فقد رسمت خرائط للسماء ، ولم يكن الغرض من رسمها مقصوراً على معرفة اتجاه القبلة فى المساجد وتحديد أيام الأعياد الدينية ، بل كان يقصد منه فوق هذا وذاك اختيار الوقت المناسب لكل عمل خطير ، ومعرفة طالع كل فرد ، أى خلقه ومصيره كما تدل عليه النجوم التى كانت فى السماء وقت مولده .

والدين الإسلامى(*) ، وإن بدا للعالم الخارجى وحدة قوية شاملة خالية من الفروق فى شعائره وعقائده ، قد انقسم من أقدم العهود شيعاً لا تقل فى عددها أو شدة اختلافها عن الشيع المسيحية . ومن هذه الشيع الخوارج ذوو النزعة الحربية المتزمتة الدمقراطية ، ومنها المرجئة التى تعتقد أن المسلم لا يقضى عليه بالعذاب الدائم فى الدار الآخرة ، والجبرية التى تنكر حرية الإرادة ، وتعتقد أن الإنسان مسير فى كل شىء وفق ما قدر له منذ الأزل ، والقدرية التى تؤمن بحرية الإرادة وتدافع عنها ، ومنها غير هذه شيع كثيرة لا حاجة بنا إلى الوقوف عندها . وحسبنا أن نُحَيِّى فيها إخلاصها لمبادئها وسعة علمها . لكن منها فرقة كان لها شأن عظيم فى التاريخ ، تلك هى طائفة الشيعة . فهؤلاء قضوا على الخلافة الأموية ، واستولوا على بلاد الفرس ومصر ، والهند الإسلامية ، وكان لهم أعظم الأثر فى الأدب والفلسفة . ونشأت طائفة الشيعة على أثر مقتل علىّ وولده الحسن وأسرته ، فقد قالت فئة قليلة من المسلمين إن الله وقت أن اختار محمداً نبياً له ورسولا ، قد أراد من غير شك أن يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية هم الوارثين لزعامة الإسلام . ولهذا فهم يرون أن جميع الخلفاء ما عدا علياً ،

(*) يريد المسلمين فهم الذين انقسموا شيعا ، أما الدين نفسه فينهى عن هذه التفرقة « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » . (المترجم)

مغتصبون لا حق لهم فى الخلافة ؛ وقد اغتبطوا حين ولى على الخلافة ، وحزنوا لمقتله ، وروعوا لمقتل الحسين . وأصبح على والحسين بعد موتهما فى رأيهم من أولياء الله الصالحين ، وهم يعظمون ضريحيهما تعظيما لا يفوقه إلا تعظيمهم للكعبة وقبر الرسول . ولعل طائفة الشيعة قد تأثرت بعقيدة الفرس واليهود والمسيحيين الخاصة بالمسيح المنتظر ، وبفكرة البوذيين عن البدهستفاس — أى تجسد القديسين مراراً بعد موتهم — فقالت إن أبناء على هم الأئمة الذين تتمثل فيهم الحكمة الإلهية . وهى ترى أن الإمام الرضا ، ثامن أولئك الأئمة الذى يقوم ضريحه فى مشهد بشمالى فارس ، هو « مجد العالم الشيعى » ؛ وقد حدث فى عام ٨٧٣ أن اختفى الإمام الثانى عشر محمد بن حسن وهو فى الثامنة عشرة ، فاعتقد الشيعة أنه لم يمت ، ولكنه سيعود فى الوقت المناسب ليعيدهم إلى السلطان الشامل والسعادة الدائمة .

وكانت الفرق الإسلامية المختلفة تشعر بعضها نحو بعض بعداء(*) يفوق عداءها لمن يعيش فى البلاد الإسلامية من الكفرة ، شأنها فى هذا شأن الفرق المختلفة فى سائر الأديان(**) . ولقد كان أهل الذمة المسيحيون ، والزردشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يستمتعون فى عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام . فلقد كانوا أحراراً فى ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زى ذى لون خاص وأداء فرضة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير (من ٤٫٧٥ إلى ١٩ دولاراً أمريكياً) . ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح ، ويعفى منها الرهبان

(*) إذا كان العداء قد استحكم فى يوم من الأيام بين بعض الفرق والبعض الآخر فإنه لم يكن بالشدة التى يصفه بها المؤلف ، ومهما يكن هذا العداء فى الماضى فإنها الآن تعيش فى وئام وقلما يعرف الرجل العادى إلى أى الفرق ينتمى زملاؤه ومواطنوه . (المترجم)

(**) لا نعلم من تاريخ الإسلام وما نشأ فيه من فرق مختلفة ، أن فرقة من هذه الفرق كانت تشعر نحو غيرها بعداء يفوق عداءها للكفرة الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية . (ى)

والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ ، والأرقاء ، والشيوخ ، والعجزة ، والعمى والشديدو الفقر . وكان الذميون يعفون فى نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية أو إن شئت فقل لا يقبلون فيها — ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها اثنين ونصف فى المائة من الدخل السنوى ، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم ، ولم تكن تقبل شهادتهم فى المحاكم الإسلامية ، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتى يخضعون فيه لزعمائهم ، وقضاتهم وقوانينهم ، وكان تسامح الحكام المسلمين معهم يختلف باختلاف الأسر الحاكمة ، فكان الخلفاء الراشدون أشداء عليهم(*) ، وكان الأمويون يعاملونهم باللين بوجه عام ، والعباسيون يعاملونهم باللين تارة وبالقسوة تارة أخرى . وقد أخرج عمر بن الخطاب اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب لأنها أرض الإسلام المقدسة ، وتعزو إليه إحدى الروايات غير المؤكدة « عهداً » قيد فيه حقوقهم بوجه عام ، لكن هذا العهد ، إن كان قد عقد ، قد أغفل العمل به ، وظلت الكنائس المسيحية فى مصر تتمتع فى أيام هذا الخليفة بالميزات التى منحتها إياها الحكومة البيزنطية قبل الفتح العربى .

وكان اليهود فى بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين ، إلا أنهم فى عهدهم قد فرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئاً من الاضطهاد من حين إلى حين ، غير أنهم مع هذا كانوا يعاملون على قدم المساواة

(*) من العجيب أن يذكر الكاتب أن الخلفاء الراشدين كانوا يعاملون بالشدة الذميين الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية . إن الدين نفسه يجعل لهؤلاء الذميين كل ما لنا من حقوق ويجعل عليهم ما علينا من واجبات ، والقرآن الكريم يحثنا على مودة المخالفين لنا فى الدين ما داموا مسالمين . وعناية عمر بن الخطاب بعد الخليفة الأول أبى بكر الصديق بغير المسلمين من أهل الذمة معروفة غير خافية . لقد جعل للفقراء المحتاجين منهم ما يكفيهم هم وعيالهم من بيت المال . على أن الكاتب نفسه ذكر قبل ذلك بسطور أن أهل الذمة كانوا ينعمون فى عهد الأمويين بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام ، ومعروف أن الأمويين كانوا على عصبية شديدة أحيانا لغير العرب حتى ولو كانوا من الموالى المسلمين . (ى)

مع المسيحين ، وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية فى حياتهم وفى ممارسة شعائر دينهم فى بيت المقدس . ، وأثروا كثيراً فى ظل الإسلام فى آسية ، ومصر ، وأسبانيا ، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين . وكان المسيحيون فى بلاد آسية الغربية ، خارج حدود الجزيرة العربية ، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامى . ويحدثنا المؤرخون أنه كان فى بلاد الإسلام فى عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار . وكان المسيحيون أحراراً فى الاحتفال بأعيادهم علنا ، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية فى فلسطين ، وقد وجد الصليبيون جماعات مسيحية كبيرة فى الشرق الأدنى فى القرن الثانى عشر الميلادى ولا تزال فيه جماعات منهم إلى يومنا هذا . وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البزنطية والذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشليم ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لم يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه ، ولقد ذهب المسلمون فى حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا ، إذ عين والى أنطاكية فى القرن التاسع الميلادى حرسا خاصا ليمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضا فى الكنائس . وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم فى الزراعة ، وفى إصلاح الأراضى البور ، وكانوا يتذوقون النبيذ المعصور من عنب الأديرة ، ويستمتعون فى أسفارهم بضيافتها ، وباغت العلاقة بين الدينين فى وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم أن يؤموا المساجد ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين . وكانت طوائف الموظفين الرسميين فى البلاد الإسلامية تضم مئات من المسيحيين ، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا فى الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين فى بعض العهود . فقد كان سرجيوس والد القديس

يوحنا الدمشقى خازن بيت المال فى عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية ، رئيس المجلس الذى كان يتولى حكم دمشق . وكان المسيحيون فى بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها .

وعلى الرغم من خطة التسامح الدينى التى كان ينتهجها المسلمون الأولون ، أو بسبب هذه الخطة ، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين ، وجميع الزردشتيين ، والوثنيين إلا عددا قليلا جداً منهم ، وكثيرون من اليهود فى آسية ، ومصر وشمالى أفريقية . فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة ، وكان فى وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان . واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لساناً لهم ، ولبسوا الثياب العربية ، ثم انتهى الأمر باتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام . وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها ، وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمى ، فى هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية ، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له ، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمساكا أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى ، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين ، وأندونيسيا ، والهند ، إلى فارس ، والشام ، وجزيرة العرب ، ومصر وإلى مراكش ، والأندلس ؛ وتملك خيالهم ، وسيطر على أخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالا تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها ، وأوحى إليهم العزة والأنفة ، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به فى هذه الأيام نحو ثلثمائة وخمسين مليونا من الأنفس ، يوحد هذا الدين بينهم ، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية .

الفصل الثالث

الشعب

كان العرب فى عهد الأمويين طبقة عليا حاكمة تحصل على مقررات من الدولة . وكان جميع الذكور القادرين من أبناء العرب ، يخضعون ، فى نظير هذه المزايا للخدمة العسكرية ، يدعون إليها فى أى وقت من الأوقات . وكانوا بوصفهم الفاتحين يفخرون بدمهم النقى فى زعمهم وبلغتهم العربية الفصحى . وكان العربى يحرص أشد الحرص على أن يضيف إليه اسمه اسم أبيه كعبد الله ابن الزبير مثلا ، وكان فى بعض الأحيان يضيف إليه اسم قبيلته وموطنه الأصلى ، فكان اسمه سيرة له مصغرة فيقول مثلا : أبو بكر أحمد ابن جرير الأزدى . غير أن نقاء الدم لم يلبث أن أصبح أسطورة خرافية بعد أن اتخذ الفاتحون لهم جوارى من أهل البلاد المفتوحة ، وأدخلوا أبناءهم منهن فى زمرة العرب ؛ ولكن الفخر بالدم والأصل ظل كما كان من قبل . وكان أفراد الطبقات العليا من العرب ينتقلون من مكان إلى مكان على ظهور الخيل ، فى أثواب من الحرير الأبيض ، وسيوفهم مشرعة بأيديهم . أما العامة فكانوا يخرجون فى سراويل منتفخة ، وعمامات مطوية ، وأحذية ذات أطراف رفيعة . واحتفظ البدوى بجلبابه الفضفاض ، وشاله ومنطقته ، وقد نهى النبى عن لبس السراويل الطويلة ، ولكن بعض العرب نسوا أمره هذا ، وكانت جميع طبقات الشعب تزدان بالحلى ، وكانت الإناث يستهوين الذكور بصدرياتهن ، ومناطقهن البرّاقة ، ونُقبهن(*) الواسعة الزاهية اللون . وكن يعقصن شعرهن على جباههن ، أو يرسلنه على جانبى رؤوسهن ، أو يجدلنه

(*) النقب جمع النقبة وهى ثوب كالإزار تجعل له حجزة مطيفة وهى skirt بالإنجليزية .
(المترجم)

غدائر تنوس على ظهورهن ؛ وكن أحياناً يكثرنه بخيوط سوداء من الحرير ، وفى أغلب الأوقات يزينه بالجواهر والأزهار . وأخذن بعد عام ٧١٥ يغطين بالنقاب وجوههن أسفل عيونهن ، وازداد انتشار هذه العادة تدريجاً بعد ذلك العام ، وبهذا كان فى وسع كل امرأة أن تكون فاتنة جذابة ، لأن عينى المرأة العربية مهما يكن سنها جميلتان تسبيان العقول . والفتاة العربية تبلغ الحلم فى سن الثانية عشرة وتصبح عجوزاً فى سن الأربعين ، وهى بين هذه السن وتلك تلهم معظم الشعراء وتلد الأبناء .

والمسلم لا يحترم العزوبة ، ولا يخطر بباله أن يمتنع عن إشباع الغريزة الجنسية ، ولا يرى أن هذا الامتناع حال طبيعية أو مثالية . وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء . وحدود الزواج أوسع فى الإسلام منها فى كثير من الأديان ، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ، ولهذا قل البغاء فى أيام النبى والخلفاء الراشدين . ولكن الانهماك فى إشباع الغريزة الجنسية يتطلب عادة كثرة التنبيه ، ولهذا لم تلبث الفتيات الراقصات أن أصبح لهن شأن كبير فى حياة الرجال حتى أكثرهم أزواجاً . وإذ كان المقصود من الآداب الإسلامية أن تكون مقصورة على آذان الذكور وأعينهم ، فإن منها ما لا يقل فحشاً عن حديث الذكور فى البلاد المسيحية ؛ فهذا الأدب يشتمل على طائفة كبيرة من الغزل ، وقد عنيت كتب الطب عند المسلمين ببيان الأدوية المقوية للباء(٤٢) . والشريعة الإسلامية تجعل الإعدام من عقوبات الزنى واللواط ، ولكن ازدياد الثروة خفف عقوبة الزنى فجعلها ثلاثين جلدة ، وغض الحكام البصر فى كثير من الأحيان عن اللواط(٤٣) . ونشأت طائفة من المخنثين المحترفين تشبهوا بالنساء فى ثيابهم وعاداتهم ، يضفرون شعورهم ، ويصبغون أظافرهم بالحناء ويرقصون الرقص الخليع(٤٤) . وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بإخصاء من كان فى مكة من المخنثين ، وأبصر الهادى امراتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما

على الفور(٤٥) . ولكن اللواط والسحاق رغم ما فرض عليهما من العقاب الصارم أخذا ينتشران انتشاراً سريعاً حتى كانا كثيرى الحدوث فى بلاط هرون الرشيد ، وفى قصائد شاعره المحبوب أبى نواس ولما يمض على زمن الهادى إلا بضعة أعوام . ذلك أن الرجل الذى حالت التقاليد بينه وبين النساء قبل الزواج ، وملهن بعده ، عمد إلى العلاقات الجنسية الشاذة ، والمرأة التى حجبها أهلها عن جميع الرجال زلت هى الأخرى فسقطت فيما سقط فيه الرجل

وكان اتصال العرب بالفرس من أسباب انتشار الحجاب واللواط فى البلاد الإسلامية . لقد كان العرب قبل الإسلام يخشون مفاتن المرأة ويعجبون بها على الدوام ، وقد ثأروا لأنفسهم من خضوعهم الغريزى لهـــا بإثارة الشكوك التى يثيرها الذكور عادة حول فضيلة المرأة وقوة عقلها . وقد نصح عمر قومه باستشارة النساء ومخالفة مشورتهن(٤٦) ، ولكن المسلمين فى القرن الأول من التاريخ الهجرى لم يحجبوا النساء ، فقد كان الرجال والنساء يتبادلان الزيارات ويسيران فى الشوارع جنباً إلى جنب ، ويصليان معاً فى المساجد(٤٧) . وكانت عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير لا تستر وجهها من أحد فعابها مصعب فى ذلك فقالت « إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد »(٤٨) . ثم انتشر الحجاب ونظام الخصيان فى أيام الوليد الثانى (٧٤٣ — ٧٤٤) . وكان منشأ عادة عزلة النساء فى بادئ الأمر تحريمهن على الرجال أيام الحيض والنفاس . وكان الزوج المسلم يدرك ما يتصف به الرجل فى الشرق من شدة العاطفة وسرعة الانفعال ، ويحس بالحاجة إلى حماية نسائه ، ويرى أن يمنعهن من الغواية بحجزهن فى البيوت ، فحرم عليهن أن يسرن فى الشوارع إلا مسافات قصيرة وهن محجبات ، وكان فى وسعهن أن تتزاورن ، ولكن ذلك كان فى العادة داخل هودج مسجف ، ولم يكن أحد يراهُن خارج البيوت أثناء الليل . وكان يفصلهن عن الرجال فى

المسجد ستر أو حظار أو رواق خاص ، ثم انتهى الأمر بمنعهن منها منعاً باتاً (٤٩) ، وأصبح الدين الذى وصف فى العالم المسيحى اللاتينى بأنه لا بد منه للأناث ، وأنه ضرورى لهن لا يزيد عليه فى ذلك إلا الغريزة الجنسية ، نقول أصبح الدين فى العالم الإسلامى ، أو بالأحرى أصبحت العبادة العامة ، وقفاً على الذكور دون الإناث ؛ وكان أشد من هذا قسوة عليهن ، منعهن من التردد على الأسواق لقضاء حاجاتهن منها ، فكن يبعثن إليها من يقضى حاجاتهن ، وكان البائعات المتنقلات ، وكن فى العادة من النساء يأتين إليهن ليعرضن عليهن بضائعهن فى داخل البيوت ، وقلما كانت النساء يتناولن الطعام مع أزواجهن اللهم إلا عند الطبقات الدنيا ، ومنع المسلم أن يرى وجوه النساء عدا وجوه أزواجه وإمائه ، وأقاربه الأدنين ؛ وحتى الطبيب نفسه لم يكن يسمح له أن يرى من النساء غير الجزء المصاب من أجسامهن ؛ وكان فى هذا النظام مرضاة للرجل ، فهو فى البيت يتيح له أكبر فرص الاستمتاع ، ويجعله فى خارجه أبعد ما يكون عن الرقابة والمفاجأة . أما عن النساء أنفسهن ، فإنا لا نجد حتى القرن التاسع عشر ما يدل على أنهن قد عارضن فى العزلة أو فى النقاب ، بل كن يستمتعن بما فى جناح الحريم من سِرّية ، وطمأنينة ، وراحة ، وكن يغضبن إذا فرط أزاجهن فى واجب المحافظة على عزلتهن ، ويرين فى ذلك إهانة لهن(٥٠) ؛ وظلت الزوجات الشرعيات يضطلعن من سجنهن الظاهرى بقسط موفور فى مجريات الحوادث التاريخية ، وكان خيزران أم الرشيد ، ولزوجته زبيدة فى القرنين الثامن والتاسع قسط كبير من النفوذ والسلطان ، وكانتا تستمتعان بكثير من الأبهة والسلطان ٥

وقلما كان تعليم البنات يتعدى عند معظم الطبقات تلقينهن الصلاة ، وقليلا من سور القرآن ، والفنون المنزلية . أما نساء الطبقات العليا فكن يتلقين تعليما متسع الآفاق ، يقوم به فى العادة معلمون خصوصيون ، ويتلقينه أحياناً فى المدارس والكليات(٥١) ؛ وكن يتعلمن قرض الشعر ، والموسيقى ، وضروباً من أشغال

الإبرة ؛ ومنهن بمن تبحرن فى العلوم واشتغلن بالتدريس . واشتهر عدد منهن فى أعمال البر المستنيرة . وكن يربين على الخفر اللائق بعاداتهن ؛ فإذا فوجئن فى الحمام أسرعن بتغطية وجوههن(*) ؛ وكن يدهشهن عدم احتشام الأوربيات اللاتى يذهبن إلى المراقص وأنصاف صدورهن عارية ، ويعانقن الكثيرين من الرجال أثناء الرقص ؛ ويعجبن من رحمة الله الذى يمهل تلك النسوة الآثمات فلا يأخذهن بذنوبهن ويهلكهن لساعتهن(٥٢) .

وكانت شئون الزواج يتولاها الآباء ، كما يتولونها فى معظم البلاد المتمدينة ، فقد كان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن أراده هو لها قبل أن تبلغ سن الرشد ؛ أما بعد هذه السن فكان لها أن تختار . وكانت البنات يزوجن فى العادة قبيل سن الثانية عشرة ، ويصبحن أمهات فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ومنهن من كن يتزوجن فى سن التاسعة أو العاشرة ، كذلك كان الشبان يتزوجون عادة فى سن مبكرة قد لا تزيد على الخامسة عشرة . وكان عقد الزواج ينص على أن يقدم الخطيب لخطيبته صداقاً يبقى لها طوال مدة الزواج وبعد الطلاق إن حدث . وقلما كان يسمح للعريس أن يرى وجه عروسه قبل الزواج . وكان يدخل بها بعد ثمانية أيام أو عشرة من عقده عليها ؛ وليس الزواج فى حاجة إلى رجل من رجال الدين ، ولكنه يصحبه دعاء قصير ، ويصحبه فى بعض الأحيان موسيقى ، ووليمة وبعض الهدايا ، وإضاءة منزل العريس والشارع الذى هو فيه بالأنوار الساطعة . وبعد هذه الحفلات يدخل الزوج غرفة زجته الخاصة ، ويرفع النقاب عن وجهها وهو يقول « باسم الله الرحمن الرهيم »(٥٣) .

فإذا لم يرتح العريس لعروسه بعد هذا الاختبار المتأخر ، كان فى وسعه أن يعيد الزوجة إلى بيتها هى ومؤخر صداقها . وكان معنى تعدد الزوجات

(*) لاشك أن هذه إحدى الفكاهات التى يلجأ إليها المؤلف فى كثير من المواضع .
(المترجم)

فى الإسلام فى أكثر الأحيان أن تتلو الواحدة منهن الاخرى ، ولم يكن معناه الجمع بينهن فى وقت واحد ، ولم يكن يستطيع ذلك الجمع إلا ذوو الثراء(٥٤) . وكانت سهولة الطلاق تمكن المسلم من أن يكون له ما يشاء من الأزواج واحدة بعد واحدة ، ويقال إن ابن الطيب ، وهو صباغ فى بغداد ، عاش إلى أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر ، وتزوج من تسعمائة زوجة (٥٦) . وكان فى وسع المسلم ، فضلا عن زوجاته ، أى يكون له أى عدد من الجوارى ، وكان لهرون الرشيد عدد كبير منهن ، وكان للمتوكل أكثر مما كان لهرون(٥٧) ، وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجوارى الموسيقى والغناء ، وفنون فتنة الرجال ، ثم يبيعونهن بأثمان عالية قد تصل إلى مائة ألف درهم (نحو ٨٠,٠٠٠ دولار أمريكى) (٥٨) . ولكن ليس من حقنا أن نظن أن بيت الحريم كان ماخوراً خاصاً . فقد كانت الجوارى يصبحن فى أغلب الأحيان أمهات ، يفخرن بمن يلدن من الأبناء ، وبعدد الذكور منهم ، ولدينا شواهد كثيرة على ما كان بين الرجل وجاريته من الحب الصادق الأكيد . وكانت الزوجات الشرعيات يرتضين هذا النظام ويرينه من الأمور الطبيعية ، فقد أهدت زبيدة إلى الرشيد عشر جوار(٥٩) ؛ وكان البيت بمقتضى هذا النظام يحتوى من الأبناء بقدر ما تحتويه ضاحية لإحدى المدن الأمريكية . من ذلك أن أحد أبناء الوليد الأول كان له ثمانون ولداً وعدد من البنات لم يذكره المؤرخون . واستتبع نظام الحريم وجود الخصيان ، وإن كان هذا محرماً فى الشريعة الإسلامية . واشترك المسيحون واليهود فى استيرادهم أو تهيئتهم ، وكان الخلفاء ، والوزراء ، والكبراء يبتاعونهم بأثمان غالية ، وسرعان ما أصبحت نواح عدة من الحكومة الإسلامية خاضعة لنفوذ أولئك الخصيان المحدودى الكفاية . وكان من النتائج التى ترتبت على نظام الحريم فى القرون الأولى التى تلت الفتوح الإسلامية أن منعت العرب من أن يمتصهم أهل البلاد

المفتوحة ، وأن تضاعف عددهم إلى الحد الذى كانوا فى حاجة إليه لحكم دولتهم المطردة الاتساع . ولربما كان لهذا النظام أثره فى قوة أقدر الرجال على الإخصاب ؛ ولكن تعدد الزوجات أصبح بعد عصر المأمون مصدراً للانحطاط من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، كما أصبح بعد أن أربت نسبة زيادة السكان على زيادة الطعام ، من أسباب تزايد الفاقة والسخط بين الأهلين .

وكان مركز المرأة بعد الزواج هو الخضوع إلى زوجها خضوعاً مصدره تقديس الرابطة الزوجية . والشريعة تحرم عليها أن يكون لها أكثر من زوج واحد فى وقت واحد ، ولم يكن فى وسعها أن تطلق نفسها منه إلا بمشقة كبيرة ؛ ذلك أنها لم يكن لديها سبيل لمعرفة خيانة زوجها ، ولم تكن هذه الخيانات مما يعبأ به كثيراً من الناحية الأخلاقية . أما خيانتها هى فكان عقابها الموت ، ويدهشنا أن نعرف كم من حوادث الزنى قد ارتكبته النساء رغم هذا العقاب الصارم والتضييق الشديد . وكانت المرأة تسب وتبجل ، وتحقر وتقمع ، وتحب فى معظم الأحيان حباً مصحوباً بعاطفة قوية وحنان ، ويقول أبو العتاهية إنه يفضل زوجته عن كل متع الحياة وعن كل ما فى العالم من ثراء(٦٠) . وأمثال هذا القول كثيرة وهى فى بعض الأحيان صادقة . وكان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة فى بعض البلاد الأوربية من ناحية هامة ، تلك هى أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لا حق لزوجها أو لدائنيه فى شىء من أملاكها . وكانت فى داخل بيتها الأمين تغزل وتنسج ، وتطرز ، وتدير بيتها ، وتعنى بأبنائها ، وتمارس بعض الألعاب ، وتأكل الحلوى ، وتتحدث إلى أترابها ، وتحيك الدسائس . وكان ينتظر منها أن تلد لزوجها كثيراً من الأبناء ذوى الفائدة الاقتصادية فى المجتمع الزراعى الأبوى ، وكان ما تلقاه من إجلال يتناسب مع خصبها ، وفى ذلك يقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « لحصير فى ناحية البيت خير من امرأة لا تلد »(٦١) . ومع هذا فإن الإجهاض ووسائل منع الحمل كانت كثيرة الانتشار فى داخل البيوت . وكانت

القابلات تنقل إلى النساء قديمها ، كما كان الأطباء يعرضون عليهن حديثها . وقد أفرد الرازى (المتوفى سنة ٩٢٤) فى أحد كتبه فصلا لموانع الحمل ، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيميائية(٦٢) . وأورد ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) فى كتاب **القانون** الذائع الصيت عشرين وصفة لمنع الحمل .

وليس ثمة فرق كبير بين المسلم والمسيحى فى النواحى الخلقية الخارجة عن نطاق الناحية الجنسية . فالقرآن مثلا يحرم الميسر والخمر تحريماً قاطعا (سورة المائدة : ٩٠) ولكن بعض الميسر وكثيراً من الخمر ظلا باقيين فى كلتا الحضارتين . وانتشر الفساد والرشوة فى أعمال الحكم والقضاء فى بلاد الإسلام فى بعض العصور كما كانا منتشرين فى البلاد المسيحية . ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحى فى خلقه التجارى(٦٣) ، وفى وفائه بوعده ، وإخلاصه للمعاهدات التى يعقدها مع غيره(٦٤) ؛ ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك فى الحروب الصليبية . والمسلمون شرفاء فيما يختص بعادة الكذب ، فهم يبيحون الكذب ، إذا كان فيه نجاة من موت ، أو حسم لخصومة ، أو إدخال السرور على زوجة ، أو خدعة فى الحرب لأعداء الدين(٦٥) . والآداب الإسلامية تجمع بين التكلف والبشاشة ، وحديث المسلم ملىء بالتحية والمبالغة فى التأدب . والمسلمون كاليهود يحيى بعضهم بعضا ، وينحنى الواحد منهم لصاحبه ويصافحه ويقول له : « السلام عليكم » ، والرد الصحيح لهذه التحية هو « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ، وإكرام الضيف من صفاتهم العامة ، والدين الإسلامى يحث على نظافة الجسم وإن كانت النظافة عادة تتأثر بالدخل ، فالفقراء يهملونها حتى تتراكم الأقذار على أجسادهم ، أما الأغنياء فيتليفون ، ويدرمون أظافرهم ، ويتعطرون . والختان عادة متبعة عند جميع المسلمين وإن لم يرد ذكرها فى القرآن ، لأنها فى رأيهم من أسباب المحافظة على الصحة ، وكان الأولاد يختتنون فى سن الخامسة

أو السادسة[٦٦] . وكانت الحمامات الخاصة من مميزات بيوت الأغنياء ، ولكن الحمامات العامة كانت ولا تزال كثيرة فى البلاد الإسلامية . فالمؤرخون يقولون إن بغداد كانت فى القرن العاشر الميلادى تحتوى على ٢٧٫٠٠٠ حمام[٦٧] : وكان العطر والبخور مألوفين بين الرجال والنساء ، وقد اشتهرت بلاد العرب من أقدم الأزمان بالكندر والمر ، وبلاد الفرس بزيت الورد والبنفسج والياسمين ، وكان فى كثير من البيوت حدائق غرست فيها أعشاب الزينة والأزهار وأشجار الفاكهة ؛ وكانت الأزهار محببة للشعب وخاصة فى فارس ، وكانت تضفى على الحياة بهجة ومتعة .

بقى أن نعرف كيف كان هؤلاء الناس يروحون عن أنفسهم وما هى وسائل التسلية عندهم ؟ لقد كان من أهم وسائل التسلية عندهم الأعياد والولائم ، والصيد ، ومغازلة النساء ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء ؛ وكانت الطبقات الدنيا تضيف إليها قتال الديكة ، والرقص على الحبال ، والشعوذة ، والسحر ، ولعبة العرائس المتحركة (القرقوز) . . . . ويدل كتاب القانون لابن سينا على أن المسلمين كان لديهم فى القرن العاشر الميلادى كل ما عندنا تقريبا من الألعاب الرياضية : الملاكمة ، والمصارعة ، والعدو ، والرمى بالنبال ، وقذف الحراب ، والحركات الرياضية الجسمية ، والمثاقفة ، وركوب الخيل ، والحجف(*) ، ورفع الأثقال ، وأنواع مختلفة من لعبة الكرة والمضرب[٦٨] . وإذ كانت ألعاب الحظ محرمة ، فقد كانت ألعاب الورق وكعوب النرد قليلة ؛ وكانت (الطاولة) كثيرة الانتشار ، وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبى قد نهى عن صنع قطعه فى صور الآدميين . وكان سباق الخيل منتشراً ، يبسط عليه الخلفاء رعايتهم ؛ ويحدثنا المؤرخون بأن أربعة آلاف جواد اشتركت مرة فى سباق . وقد ظل صيد الحيوان مقصوراً على

(*) الجحف اللعب بالكرة وهو المعروف بالبولو فى هذه الأيام . (المترجم)

أرقى طبقات الأشراف ، وكان عند المسلمين أقل عنفاً منه فى أيام الساسانيين ، وكثيراً ما اقتصر على الصيد بالبزاة أو الصقور . وكانت الحيوانات المصيدة تربى أحياناً وتدلل ، وكان عند بعض الأسر كلاب ، وعند بعضها قردة ، وعند بعض الخلفاء آساد ونمورة يرهبون بها رعاياهم أو سفراء الدول الأجنبية .

وكان العرب حين فتحوا بلاد الشام قبائل قليلة الحظ من المدنية ، شجعاناً إلى درجة التهور ، كثيرى العنف ، سريعى الانفعال ، متشككين ؛ وكان الإسلام قد خفف من حدة هذه الصفات ، ولكن معظمها لم يكن قد انمحى بعد ؛ وأكبر الظن أن ما يحدثنا عنه المؤرخون عن ضروب القسوة التى كان يرتكبها بعض الخلفاء لم يكن يزيد فى مجموعه على ما كان يرتكبه الملوك المسيحيون والبيزنطيون والمروڤنجيون ، وأهل الشمال ؛ ولكنه رغم هذا مما يسربل بالعار كل حضارة . ومما يروى عن سليمان بن عبد الملك أنه فى رحلة له إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ، دعا رجال حاشيته ليجربوا سيوفهم فى رقاب أربعمائة من الروم ، أُسِرُوا حديثاً فى إحدى الحروب ؛ وقبل رجاله الدعوة وضربت رقاب أربعمائة رجل ، ليتسلى الخليفة بذلك المنظر(٦٩) . ولما جلس المتوكل على العرش ألقى فى السجن بوزير كان قد عامله مرة منذ بضع سنين بشىء من الاحتقار ؛ ومنع السجين من النوم عدة أسابيع حتى كاد يذهب عقله ، ثم سمح له أن ينام أربعاً وعشرين ساعة ؛ فلما عادت إليه قوته بهذه الطريقة وضع بين ألواح من الخشب دقت فيها مسامير ، منعته أن يتحرك ليقضى حاجته الطبيعية ، وبقى على هذه الحال يعانى أشد الآلام حتى مات(٧٠) . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الوحشية كانت من الأعمال الشاذة ، أما المألوف فإن المسلم كان مثال الرقة ، والإنسانية ، والتسامح ؛ وكان ، إذا وصفنا أوساط الناس ، سريع الفهم ، حاد الذكاء ، سريع التهيج ، يسهل

إدخال السرور على قلبه ، والمرح على نفسه ؛ يجد الرضا فى البساطة ، ويصبر على بلواه فى هدوء ، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر ، وكرامة ، وشمم ، وكبرياء . وكان المسلم إذا عقد النية على سفر طويل ، أخذ معه كفنه المنسوج من الكتان ، استعداداً منه فى أى وقت للقاء ربه ، فإذا أنهكه المرض والتعب وهو سائر فى الصحراء ، أمر رفاقه بأن يواصلوا سفرهم . ثم توضأ هو لآخر مرة ، واحتفر بنفسه حفرة يتخذها قبراً له ، ولف نفسه فى كفنه ، ونام فى الحفرة ، ينتظر أن توافيه منيته ، وأن تغطى جسمه الرمال السافية(٧١) .

الفصل الرابع

الحكومة

كانت الحكومة الإسلامية فى الثلاثين السنة التى تلت وفاة النبى جمهورية دمقراطية من الوجهة النظرية بالمعنى الذى كان مفهوما من هذه العبارة فى الزمن القديم ، وهو أن يشترك جميع الذكور الراشدين فى اختيار رأس الدولة وتحديد سياستها . أما من الناحية العملية فقد كان الذين يختارون أمير المؤمنين ويرسمون سياسة الدولة فئة قليلة من أعيان المدينة . ولم يكن ينتظر شىء غير هذا بطبيعة الحال ؛ ذلك أن الناس يختلفون فى ذكائهم وفى ضمائرهم ، ولهذا فإن الدمقراطية فى أحسن صورها لابد أن تكون نسبية ؛ ولا محيص من أن تنشأ صورة ما من صور الأرستقراطية فى المجتمعات التى لا تتيسر فيها سبل الاتصال والتى تقل فيها نسبة المتعلمين . وإذا كانت الحرب والدمقراطية لا تجتمعان معاً ، فإن اتساع رقعة البلاد الإسلامية قد ساعد على قيام حكم الفرد ، لأن وحدة الرياسة والإسراع فى اتخاذ القرارات لا بد منهما لقيام السياسية الحربية والاستعمارية . ولهذا أضحت الحكومة فى عهد الأمويين ملكية صريحة ، الخلافة فيها إما وراثية وإما أن تقررها قوة السلاح .

كذلك كان منصب الخليفة من الوجهة النظرية منصبا دينيا أكثر مما كان منصبا سياسيا . فقد كان الخليفة قبل كل شىء رئيس مجتمع دينى هو مجتمع المسلمين ، وكان واجبه الأول الدفاع عن الدين ، ولهذا كانت الخلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين . لكن الخليفة لم يكن بابا أو قسا ، ولم يكن فى مقدوره أن يصدر قرارات جديدة فى الشئون الدينية . ومع هذا فقد كان من الوجهة العملية ذا سلطان مطلق لا يحد منه برلمان ، ولا طبقة وراثية من

الأشراف ، ولا هيئة من رجال الدين ، بل كان الذى يحد من هذا السلطان هو القرآن وحده — وكان فى وسع من يستخدمهم من العلماء(*) ويؤدى لهم أجرهم أن يفسروه له كما يريد . وكان ثمة قدر من تكافؤ الفرص فى هذه الحكومة المطلقة . ذلك أنه كان فى مقدور أى إنسان أن يرقى إلى أعلى المناصب إلا إذا كان أبواه كلاهما من الأرقاء .

وأدرك العرب أنهم قد تغلبوا على مجتمعات مضمحلة ولكنها حسنة التنظيم فاستعانوا فى بلاد الشام بنظام بيزنطية الإدارى ، وفى بلاد فارس بنظام الساسانيين ، وكان لا بد أن تسير الحياة فى الشرق الأدنى على النسق القديم ، بل إن الثقافة اليونانية الشرقية نفسها قد تخطت حاجز اللغة وانتعشت مرة أخرى فى العلوم والفلسفة الإسلامية : ونشأ فى عهد العباسيين طراز معقد من الحكومة المركزية ، والإقليمية ، والمحلية ، تسيره طائفة من الموظفين لا تتأثر إلا قليلا باغتيال الجالسين على العرش ، أو بالثورات التى تحدث فى داخل القصر . وكان على رأس النظام الإدارى الحاجب أو رئيس التشريفات ، ولم يكن عمله من الوجهة النظرية يتعدى الإشراف على الحفلات فى القصر ، ولكنه استطاع من الوجهة العملية أن يستحوذ على كثير من السلطة بتحكمه فيمن يدخلون على الخليفة . وكان يليه فى مرتبته ، ولكن يفوقه فى السلطان (بعد الخليفة المنصور) الوزير ؛ وهو الذى يعين موظفى الحكومة ، ويشرف عليهم ، ويرسم سياسة الدولة ويسيرها . وكان أهم الدواوين ديون الخراج ، والحسابات ، والشرطة ، والبريد ، والنظر فى المظالم وهو الذى أصبح بمثابة محكمة ترفع إليها الأحكام القضائية والإدارية ؛ وكان يلى الجيش فى الأهمية عند الخليفة ديوان الخراج حيث كان الجباة يضارعون جباة الدولة

(*) لاشك فى أن فى هذا الحكم الشامل مغالاة كثيرة . فالتاريخ الإسلامى يفيض بالشواهد الدالة على ما لرجال الدين من مواقف مشرفة ضد الخلفاء ، لاقوا بسببها كثيراً من العنت والاضطهاد . (المترجم)

البيزنطية فى عنادهم وشدتهم ؛ وكانت أموال طائلة تنتزع من الاقتصاد القومى لإقامة نظام الحكم والإنفاق على الحكام . وكان إيراد بلاد الخلافة كل عام فى عهد هرون الرشيد يزيد على ٥٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (نحو ٤٢ر٤٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) فضلا عما أضيف إليه فى ذلك الوقت من ضرائب عينية لا يحصى عديدها(٧٢) . ولم يكن ثمة دَيْن قومى ، بل حدث عكس هذا فى عام ٧٨٦ إذ كان فى الخزانة رصيد يبلغ ٩٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم .

وكان البريد العام ، كما كان فى عهد الفرس والرومان ، لا يخدم إلا الحكومة وكبار الأشخاص ، وكان أهم ما يستخدم فيه هو نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات ، ولكنه كان إلى هذا يتخذ وسيلة للتجسس من قبل الوزير على الحكام المحليين . وكان ديوان البريد يصدر أدلة مكتوبة ليستعين بها التجار والحجاج ، تحوى أسماء محاط البريد المختلفة ، وبعد كل واحد منها عن الآخر ، وكانت هذه الأدلة أساس علم تقويم البلدان عند العرب ، وكان الحمام يدرب ويستخدم فى نقل الرسائل — وكان هذا أول استخدام له معروف فى التاريخ (٨٣٧) . وكانت الأخبار فوق هذا ينقلها المسافرون والتجار ؛ وكان فى بغداد ألف وسبعمائة « امرأة عجوز » يعملن جاسوسات . غير أن الرقابة مهما اشتدت لا يمكن أن تحول بين الشرقيين والغربيين وبين ابتزاز الأموال العامة أو الارتشاء . فقد كان الولاة فى بلاد العرب ، كما كانوا فى بلاد الرومان ، يرون أن سنى خدمتهم يجب أن تعوضهم عما أنفقوه من المال ليرتقوا به سلم المناصب ، وما يلاقونه من المحن حين يغادرون المنصب . وكان الخلفاء فى بعض الأحيان يرغمونهم على أن يردوا ما اغتصبوه ، أو يبيعون حق إرغامهم إلى الحكام الذين يخلفونهم ، وبهذه الطريقة انتزع يوسف بن عمر ٧٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم من الولاة الذين تولوا حكم العراق قبله . وكان الولاة يتناولون مرتبات عالية ، ولكن منهم أيضاً من تأثروا بسخاء الأسخياء ، وقد ورد فى أحد الأحاديث أن النبى نفسه كان يرى أن اثنين على

الأقل من بين كل ثلاثة قضاة سيحشرون فى النار(٧٣) .

وكان المفروض أن الشريعة التى تحكم بها الدولة المترامية الأطراف مستمدة من نصوص القرآن . ذلك أن القانون والدين كانا عند المسلمين ، كما كانا عند اليهود ، شيئاً واحداً . فكل جريمة خطيئة ، وكل خطيئة جريمة ، ولذلك كان فقه القانون عند المسلمين فرعاً من علوم الدين . فلما أن زادت الفتوح من التبعات الملقاة على الشريعة الإسلامية ونشأت حالات جديدة لم ينص عليها فى القرآن وضع بعض المشترعين المسلمين أحاديث لمواجهة تلك الحالات صراحة أو ضمناً ، وبهذا أصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر التشريع الإسلامى(*) ، وكان من المصادفات الغريبة المتكررة أن هذه الأحاديث تردد أصداء المبادئ والأحكام والشرائع الرومانية والبيزنطية ، وتردد أكثر من ذلك مبادئ المشنا وجمارا اليهود وأحكامهما(٧٤) . وكانت الزيادة المطردة فى هذه الأحاديث التشريعية الكثيرة مما رفع من شأن مهنة القضاء فى البلاد الإسلامية ، وخلع على الفقهاء الذين يفسرون القانون أو يطبقونه من السلطان والتعظيم ما لا يقل عما كان لطبقة الكهنة والقساوسة عند غير المسلمين . وقد فعل هؤلاء ما فعله أمثالهم فى فرنسا فى القرن الثانى عشر ، فقد تحالفوا مع الملكية ، وأيدوا حكم العباسيين المطلق ، ونالوا جزاءهم على هذا التأييد .

ونشأت فى البلاد الإسلامية السنية أربعة مذاهب : أولاها مذهب أبى حنيفة ابن ثابت (المتوفى عام ٧٦٧) ، وقد أحدث انقلاباً كبيراً فى الشريعة الإسلامية باتباع مبدإ العباس فى تفسير القرآن . وهو يرى أن القانون الذى سن فى أول الأمر لأهل الصحراء يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل بروحه إذا أريد تطبيقه على مجتمع صناعى أو حضرى . وعلى هذا الأساس أجاز أبو حنيفة قروض الرهن

(*) لسنا ننكر أن هناك أحاديث منحولة ولكننا نعتقد أن الأحاديث الصحيحة السند معين لا ينضب للتشريع . (المترجم)

ويشبه هذا ما فعله هلل فى فلسطين قبل ذلك العهد بثمانية قرون . ومن أقوال أبى حنيفة فى هذا المعنى إن القاعدة القانونية تختلف عن قواعد النحو والمنطق ، فهى تمثل سنة عامة تتغير بتغير الظروف التى أوجدتها(٧٥) . وخرج من بين أهل المدينة المحافظين عالم آخر لا يجيز هذه الفلسفة الحرة التقدمية فى التشريع ، وهو مالك بن أنس (٧١٥ — ٧٩٥) . وقد أقام مالك مذهبه بعد دراسة واسعة لألف وسبعمائة من الأحاديث التشريعية ، ويقول إنه لما كانت كثرة هذه الأحاديث قد صدرت فى المدينة ، فإن إجماع أهل المدينة هو الذى يجب أن يؤخذ به فى تفسير الحديث والقرآن . ويرى محمد الشافعى (٧٦٧ — ٨٢٠) الذى عاش فى بغداد والقاهرة ألا يقتصر هذا الحق على أهل المدينة ، وأن الإجماع فى كل بلاد الإسلام هو المحك الأخير للشرائع والسنة والحقيقة . ويرى تلميذه أحمد بن حنبل أن هذا المقياس غامض وأوسع مما ينبغى ، وأنشأ مذهباً آخر أساسه أن القرآن والحديث وحدهما يجب أن يكونا أساس التشريع . وندد بمذهب المعتزلة العقلى فى الفلسفة ، وألقى به المأمون فى السجن لتمسكه الشديد بمذهب أهل السنة ، ولكنه استمسك بآرائه بشجاعة عظيمة كان من أثرها أن خرجت بغداد على بكرة أبيها تشيع جنازته لما أن وافته منيته .

غير أن ما بين المذاهب الإسلامية الأربعة ، التى يعترف بها أهل السنة فى الإسلام ، من الاتفاق فى التفاصيل لا يقل عما بينها من الاختلاف فى المبادئ ، وذلك على الرغم من هذا الجدل الطويل الذى ظل قائماً مائة عام . فهى كلها تؤمن بأن الشريعة الإسلامية من عند الله ، وبأن كل شريعة خليقة بأن يحكم بها الجنس البشرى الذى لا يخضع بفطرته للقانون ، يجب أن تكون أصولها منزلة من عند الله . وهى كلها تسرف فى وضع تفاصيل قواعد السلوك والشعائر الإسلامية إسرافا لا يجاريها فيه إلا الدين اليهودى ، وقد عنى المشرعون بكثير من التفاصيل كطريقة استعمال السواك ، وسنن الزواج ، وما يليق وما لا يليق من ثياب الرجال

والنساء ، والطريقة الصحيحة لتصفيف الشعر ، ويروى أن أحد الفقهاء لم يأكل البطيخ قط لأنه لم يجد فى القرآن أو الحديث ما يعرف منه الطريقة الصحيحة التى يأكله بها(٧٦) . ولقد كان من شأن كثرة ما يسن من القوانين أن تحول بين تطور المجتمع الإسلامى ، ولكن اختلاف الآراء فى القانون الواحد وتجاوز منفذى القانون عن مخالفته فى بعض الأحيان قد وفقا بين قسوة التشريع من جهة وقسوة الحياة وتطورها من جهة أخرى . غير أنه رغم هذا ، ورغم انتشار مذهب أبى حنيفة وما فيه من تسامح وحرية ، فإن النزعة الغالبة على الشرائع الإسلامية هى النزعة المحافظة والاستمساك القوى بالسنن استمساكا يعطل التطور الحر للأنظمة الاقتصادية ، والآداب الشخصية والتفكير (*) .

ولا يسعنا إلا أن نسلم — مع هذه التحفظات — بأن الخلفاء الأولين من أبى بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية فى رقعة واسعة من العالم ، وأنهم كانوا من أقدر الحكام فى التاريخ كله . ولقد كان فى مقدورهم أن يصادروا كل شىء ، أو أن يخربوا كل شىء ، كما فعل المغول أو الحجر أو أهل الشمال من الأوربيين ؛ لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب . ولما أن فتح عمرو مصر أبى أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين ، وأيده الخليفة فى هذا الرأى وأمره أن يتركها فى أيدى الشعب يتعهدها فتثمر(٧٧) . وفى زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضى ، واحتفظت الحكومة بسجلاتها ، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها ، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها ، وكانت العراق قبل الفتح الإسلامى صحراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جناناً فيحاء ؛ وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملا وحجارة فأصبحت خصبة ، غنية ، عامرة بالسكان(٧٨) . وما من شك

(*) وهذا ما لا نوافق عليه المؤلف وما لا يتفق مع الواقع ، فالإسلام بشهادة كثيرين من علماء الغرب سمح لا يعطل التفكير أو الاقتصاد أو الآداب . (المترجم)

فى أنِ استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بقى فى عهد الحكومات الإسلامية كما يبقى فى عهود كل الحكومات ، ولكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم ، وهيئوا الفرص لذوى المواهب ، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون فى أصقاع لم تر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم ، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم ، وازدهرت العلوم ، والآداب ، والفلسفة ، والفنون ازدهاراً جعل آسية الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة .

الفصل الخامس

المـــدن

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرجال الذين أنشأوا هذه الحضارة وميزوها عن غيرها من الحضارات ، ونصف أعمال هؤلاء الرجال ، أن نصور لأنفسنا البيئة التى كانوا يعيشون فيها . إن الحضارة ريفية فى أصولها وقواعدها ، ولكنها مدنية فى صورتها ؛ إذ لا بد أن يجتمع الناس فى المدن حتى يستمع بعضهم إلى بعض وينبه بعضهم بعضا .

ولقد كانت البلدان الإسلامية جميعا تقريباً غير كبيرة فى سعتها لا يزيد سكان الواحدة منها على عشرة آلاف ومنها ما يقل عامرها عن ذلك ، يحشرون فى رقعة من الأرض ضيقة لها أسوار تحميها من الغارات والحصار ، مظلمة شوارعها مليئة بالتراب والوحل ، ذات بيوت صغيرة مطلية بالجص ومحوطة بجدران متصلة ترد عنها الأبصار . وكان جلال المدينة كله محصوراً فى مسجدها ، ولكن كانت تقوم فى أماكن متفرقة من الأقطار الإسلامية مدن كبيرة ارتقت فيها الحضارة الإسلامية إلى أعلى درجات الجمال والمعرفة والسعادة

وكانت مكة والمدينة ، ولا تزالان ، فى نظر المسلمين مدينتين مقدستين ، لأن فى أولاهما الكعبة التى كان العرب يقدسونها فى الزمن القديم ، كما أن فيها مسقط رأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولأن الثانية هى المكان الذى هاجر إليه وأقام فيه . وقد جدد الوليد الثانى بناء مسجد المدينة الصغير وجعله مسجداً فخما ذا روعة وجمال : وأرسل إمبراطور بيزنطية بناء على طلب الوليد ، وفى نظير ثمانين ألف دينار ، أربعين حملا من أحجار الفسيفساء ، كما استقدم الوليد ثمانين من مهرة الصناع من مصر وبلاد اليونان ، حتى لقد شكا المسلمون من أن مسجد

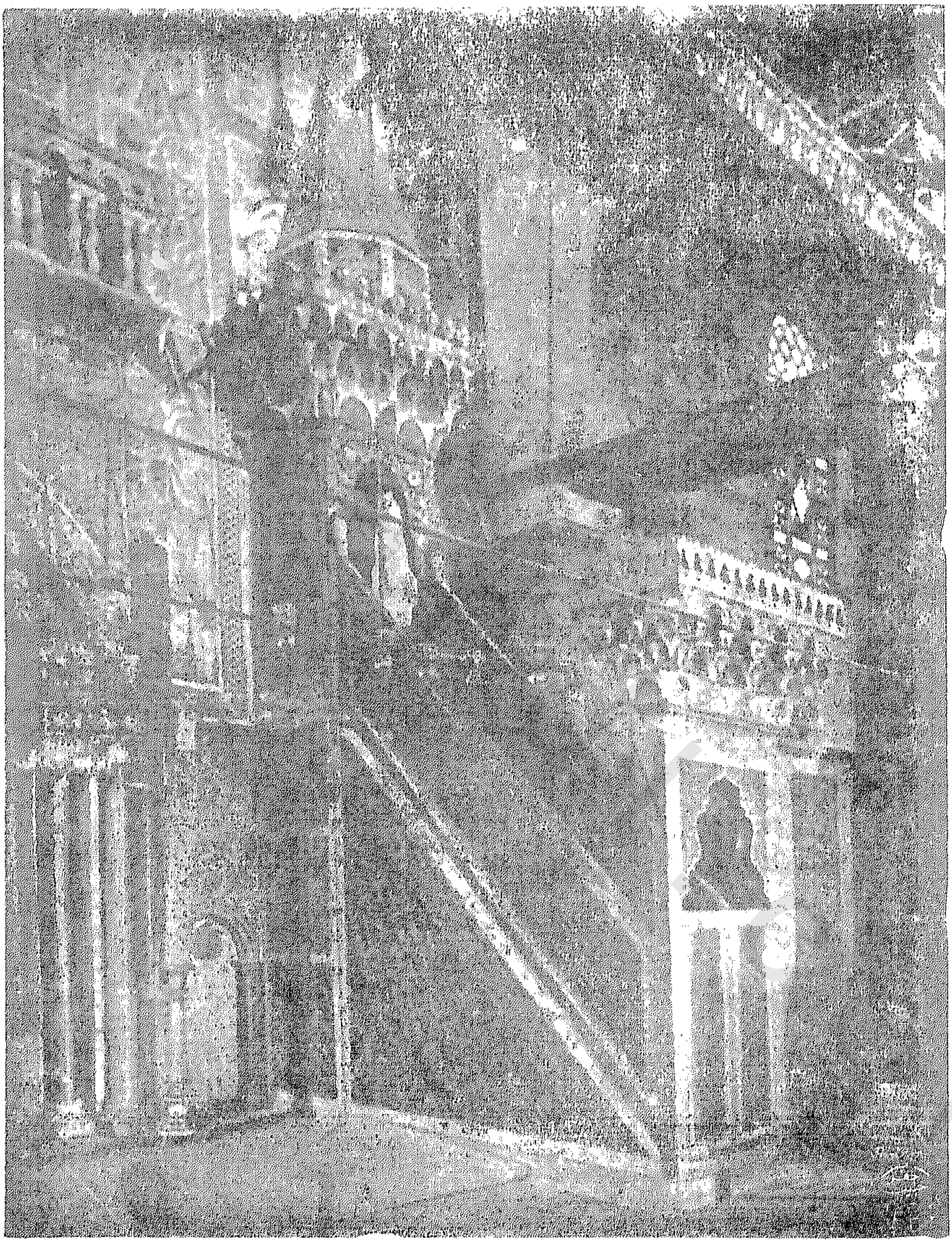

شكل ٢) منبر المسجد الأقصى ببيت المقدس مصنوع من الخشب

خراج مصر فى تشييد عدد صروح تعرف عند المسلمين باسم الحرم الشريف ، وشيد فى الطرف الجنوبى من المدينة (٦٩١ — ٦٩٤) المسجد الأقصى . وقد دمر زلزال هذا المسجد فى عام ٧٤٦ ، ثم أعيد بناؤه فى عام ٧٨٥ ، وأدخلت عليه فيما بعد تعديلات كثيرة ، ولكن القبلة لاتزال كما كانت فى أيام عبد الملك ، كما أن مغظم العمد مأخوذة من باسلقا جستنيان التى كانت قائمة فى أورشليم . ويرى المقدسى أن بيت المقدس أجمل من المسجد الأموى العظيم المقام فى دمشق ، ويقول المسلمون إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقى فيه بإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وإنه صلى فيه معهم ، وإنه رأى بالقرب منه الصخرة (التى يعتقد بنو إسرائيل أنها سرة الدنيا) والتى أراد إبراهيم أن يضحى عندها بإسحق(*) ، والتى تلقى عندها موسى تابوت العهد ، والتى شاد عندها سليمان وهيرود هيكليهما . ويعتقد بعض المسلمين أن النبي صعد عندها إلى السماء ؛ وأن الإنسان لو أوتى إيماناً قوياً لأبصر فى الصخر آثار قدميه . ولما أن استولى عبد الله بن الزبير على مكة فى عام ٦٨٤ وعلى ما يدخل فيها من إيراد الحج أراد عبد الملك أن يجتذب إلى الشام أموال الحجاج ، وأن يحج الناس إلى الصخرة بدل أن يحجوا إلى الكعبة ، فأقام صناعه على هذا الحجر التاريخى (٦٩١) « قبة الصخرة » الشهيرة على الطراز البيزنطى — السورى ، وسرعان ما أضحت هذه القبة « رابعة عجائب العالم الإسلامى » (والثلاث الأخرى هى مساجد مكة والمدينة ودمشق) . ولم يكن هذا البناء فى أول أمره مسجداً ، بل كان حرماً مقدساً حول الصخرة ؛ وقد أخطأ الصليبيون مرتين حين أطلقوا عليه اسم « مسجد عمر » . ويبلغ ارتفاع القبة ١١٢ قدما ، وهى قائمة على بناء ذى ثمانية أضلاع مشيد من الحجارة المربعة . ويبلغ محيط هذا البناء ٥٢٨ قدما . والقبة نفسها مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بالنحاس

(*) الذى يعتقده المسلمون أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق . (المترجم)

الأصفر المذهب ذى النقوش البارزة . وللبناء أربعة أبواب جميلة — عتباتها مصفحة بالبرنز — تؤدى إلى الداخل الذى تقسمه صفوف من العمد المتخذة من المرمر المصقول ، متتالية ومتحدة فى المركز ، إلى أشكال مثمنة الأضلاع كل منها أصغر من الذى فى خارجه . وهذه العمد الفخمة من الآثار الرومانية القديمة ، وتيجانها بيزنطية الطراز . وتمتاز الأجزاء التى بين العقود بما فيها من قطع الفسيفساء ، التى تصور أشجاراً لا تقل فى جمالها عن تصوير كوربية Courbet . وأجمل من هذا على جماله فسيفساء الجزء الأسفل من القبة . وعلى الطنف التى فوق العمد الخارجية نقش بالخط الكوفى ذو حروف صفراء على قطع من القرميد زرقاء ، أمر به صلاح الدين فى عام ١١٨٧ ، وهو مثل جميل رائع من هذه الزخرفة المعمارية الفذة . وتحيط العمد بهذه الصخرة الضخمة غير المنتظمة الشكل التى يبلغ محيطها مائتى قدم . وقد وصفها المقدسى بقوله :

« فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة ، وتلألأت المنطقة ، ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أر فى الإسلام ولا سمعت أن فى الشرق مثل هذه القبة »(٨٠).

وقد أخفق عبد الملك فيما كان يسعى إليه من إحلال هذه الصخرة عند المسلمين محل الكعبة ، ولو أنه نجح فيما كان يبتغيه لأضحى بيت المقدس مركز الأديان الثلاثة التى كانت تتنافس فى الاستحواذ على روح الإنسان فى العصور الوسطى .

ومع هذا كله فإن بيت المقدس لم تكن عاصمة ولاية فلسطين ، بل نالت الشرف بلدة الرملة . وكانت فى الأماكن التى تشغلها الآن قرى صغيرة فقيرة مدن زاهرة فى عهود الإسلام الأولى . ومن تلك المدن عكا التى كتب عنها المقدسى فى عام ٩٨٥ يقول إنها مدينة كبيرة واسعة الرقعة . وكتب الإدريسى فى عام ١١٢٤ عن صيدا يقول إنها مدينة مترامية الأطراف تحيط بها الحدائق والأشجار ، ووصف اليعقوبى فى عام ٨٩١ مدينة صور بأنها بلدة جميلة مشيدة على صخرة ،

بارزة فى البحر ، ويقول ناصرخسرو فى عام ١٠٤٧ إن فيها خانات ترتفع خمس طبقات أوست ، وإن فيها قدراً كبيراً من الثروة معروضاً فى أسواقها النظيفة(٨١). وكان لطرابلس القائمة فى شمالها مرفأ أمين جميل يتسع لألف سفينة . واشتهرت طبرية بياسمينها وبعيونها الحارة . وكتب ياقوت الرحالة المسلم فى عام ١٢٢٤ عن الناصرة يقول : « فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ! . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لم تلد قط عذراء طفلا » (٨٢)(*) .

ويصف اليعقوبى بعلبك بأنها من أجمل بلدان الشام ، ويضيف المقدسى إلى هذا أنها بلدة عظيمة الثراء . وكانت أنطاكية ثانية مدن الشام لا يفوقها فى عظمتها إلا دمشق وحدها . وقد امتلكها المسلمون من عام ٦٣٥ إلى عام ٩٦٤ ، ثم استولى عليها البيزنطيون من ذلك التاريخ الأخير حتى عام ١٠٨٤ . ويعجب الجغرافيون المسلمون بكنائسها الكثيرة الفخمة ، وبما فى بيوتها الجميلة من شرفات عالية ، وبحدائقها وبساتينها الغناء ، ويقولون إن الماء يدخل فى كل بيت من بيوتها . وكانت طرسوس من كبريات المدن ؛ ويقدر ابن حوقل (٩٧٨) عدد الذكور من سكانها بمائة ألف ، وقد استعادها نقفور إمبراطور الروم فى عام ٩٦٥، وهدم جميع ما فيها من المساجد ، وحرق جميع المصاحف ، وكانت حلب بلدة غنية لوقوعها عند ملتقى طريقين من طرق القوافل . ويصفها المقدسى بأنها مدينة غنية مبنية بالحجارة ، ذات شوارع تظللها الأشجار ، وتقوم على جانبها الحوانيت ويؤدى كل شارع منها إلى باب من أبواب المسجد . وكان فى هذا المسجد محراب اشتهر بما فيه من عاج وخشب محفور ، ومنبر تبتهج العين لرؤيته . وكان بالقرب منه خمس مدارس ، وبيمارستان ، وست كنائس مسيحية . وكتب

(*) هذه هى ترجمة النص كما أورده المؤلف أما النص كما جاء فى كتاب معجم البلدان لياقوت فهو « . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لا تولد بها بكر إلى هذه الغاية » .
(المترجم)

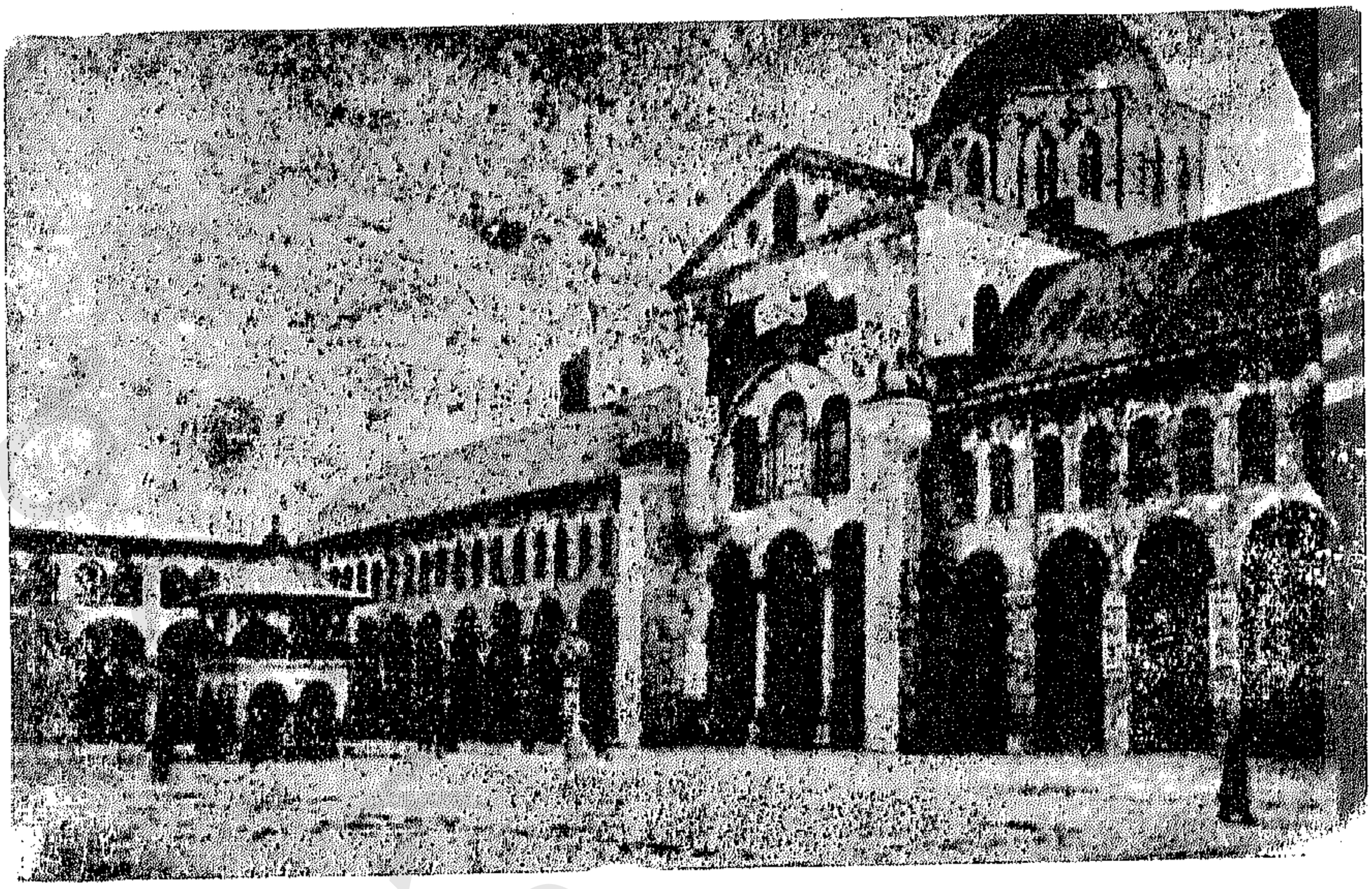

(شكل ٣) المسجد الأموى بدمشق

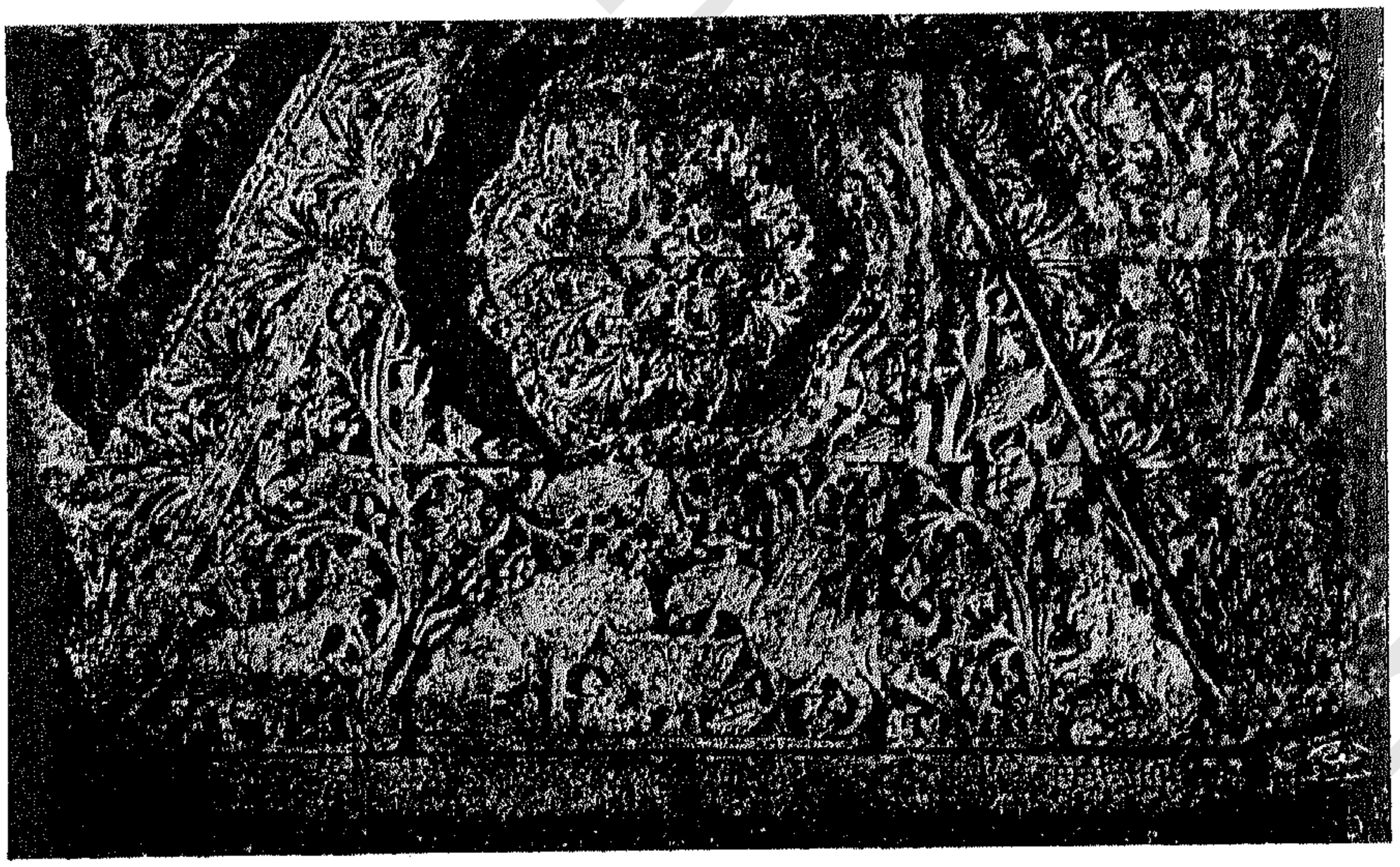

(شكل ٤) نقش بارز على الصخر ببلاد الشام

obeikandl.com

اليعقوبى فى عام ٨٩١ يقول إن حمص أكبر مدن الشام ، وكتب الاصطخرى فى عام ٩٥٠ يقول إن شوارعها وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة . ويقول المقدسى إن نساءها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة(٨٣) .

ولما اتسعت الدولة العربية نحو الشرق رؤى أن من مصلحتها أن تكون عاصمتها فى موضع أقرب إلى وسطها من مكة أو بيت المقدس . وقد أحسن بنو أمية إذ اختاروا دمشق عاصمة لدولتهم — وكانت هذه المدينة ذات تاريخ قديم حين أقبل عليها العرب فاتحين . وكان يلتقى عندها خمسة أنهار ، تجعل الإقليم الذى من خلفها « جنة الشرق » بحق ، وتمد بالماء مائة فسقية ، ومائة حمام عام ، ومائة وعشرين ألف بستان(٨٤) ، ثم تجرى نحو الغرب إلى « وادى البنفسج » الذى يبلغ طوله اثنى عشر ميلا وعرضه ثلاثة أميال . ويقول الإدريسى إن « مدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسنها مكانا ، وأعدلها هواء ، وأطيبها ثرى ، وأكثرها مياها ، وأغزرها فواكه ، وأعمها خصبا ، وأوفرها مالا وأكثرها جنداً(٨٥)(*) .

وفى قلب هذه المدينـــة وبين سكانها الذين يبلغون نحو مائة وأربعين ألفاً يقوم قصر الخليفة الذى شاده معاوية الأول ، والذى يلمع فيه الذهب والرخام ، وتتلألأ فى أرضه وعلى جدرانه الفسيفساء ، والذى تلطف جوه الفساقى والشلالات التى يتدفق منها الماء على الدوام . وفى الناحية الشمالية من المدينة يقوم مسجدها العظيم وهو واحد من اثنين وسبعين وخمسمائة مسجد فى المدينة ، والأثر الوحيد الباقى من دمشق الأموية . وكان موضعه فى أيام الرومان يزدان بهيكل لجوبتر ، ثم أقام ثيودوسيوس الأول على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان (٣٧٩) . وعرض الخليفة الوليد الأول على المسيحيين حوالى عام ٧٠٥ أن يعدل بناء الكنيسة

(*) ويضيف إلى ذلك « ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة . . . ويها ضياع كالمدن ولم يقل الإدريسى إنها أجل بلاد (الله) الخ كما قال المؤلف) . (المترجم)

حتى تصبح جزءاً من مسجد جديد يريد بناءه فى ذلك المكان ، ووعدهم بأن يعطيهم أرضاً ومواد فى أى مكان يختارونه ليقيموا فيه كنيسة جديدة . ولكن المسيحيين احتجوا على هذا العمل وحذروه من عاقبته ، وقالوا إنه قد ورد فى كتبهم أن من يجرؤ على هدم تلك الكنيسة سيموت مختنقا ؛ ولكن الوليد لم يأبه بهذا التحذير وكان هو البادئ بهدم الكنيسة بيديه . ويقول المؤرخون إن جميع خراج الأرض فى الدولة كلها قد خصص مدى سبع سنين لتشييد هذا المسجد ، هذا إلى المال الكثير الذى أعطى للمسيحين لينشئوا به كنيسة جديدة . وجىء بالصناع والفنانين من الهند ، وفارس ، والقسطنطينية ، ومصر ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، وكان من استخدم فى بنائه من العمال اثنى عشر ألف عامل ، أتموه فى ثمان سنين . والرحالة المسلمون مجمعون على أنه أفخم بناء فى بلاد المسلمين ، ويرى المهدى والمأمون من الخلفاء العباسيين — وليس منهما من يحب الأمويين أو دمشق — أنه لا يضارعه بناء غيره فى جميع أنحاء العالم . ويتكون البناء من سور محصن ، فى داخله صفوف من العمد تحيط بصحنه الواسع المرصوفة أرضه بالرخام . ويقوم المسجد نفسه فى الجهة الجنوبية من هذا المكان المتسع ، وهو مشيد من الكتل الحجرية المربعة وتشرف عليه أربع مآذن — منها واحدة هى أقدم ما شيد من المآذن فى الإسلام ، وكان تخطيط المسجد وزخرفته على الطراز الرومانى ، وما من شك فى أنهما قد تأثرا بطراز أياصوفيا . وكان السقف والقبة — ويبلغ طول قطرها خمسين قدما — مكفتين بصفائح الرصاص . أما داخل المسجد الذى يبلغ طوله ٤٢٩ قدماً فيشتمل على صفين من العمد المنحوتة من الرخام الأبيض تفصل صحنه عما يحيط به من طرقات . وتيجان هذه العمد كورنثية الطراز مكفتة بصفائح الذهب ؛ ومن فوقها عقود مستديرة أو على شكل حذاء الفرس ،

وهذا الطرز الثانى من العقود أول ما أقيم من نوعه فى بلاد الإسلام(*) . وأرض المسجد من الفسيفساء وقد غطيت بالطنافس ، كما غطيت جدرانه بالفسيفساء ، المصنوعة من الرخام الملون وبالقاشانى المطعم بالميناء ، وفى داخل المسجد ستة حواجز جميلة من الرخام تقسم داخله إلى عدة إيوانات . وفى أحد جدرانه المتجهة نحو مكة محراب مرصع بالذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويدخل الضوء إلى المسجد من أربعة وسبعين شباكاً من الزجاج الملون ومن اثنى عشر ألف قنديل . ويصفه أحد الرحالة بقوله : « ولو أن رجلا من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صفة وعقدة أخرى »(**) .

وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم : « لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ فى بلادى إن سلطان العرب سيزول عما قريب ، أما الآن وأنا أرى كيف كانوا يشيدون عمائرهم فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طوالا »(†) .

وإذا اتجه الإنسان من دمشق نحو الشرق واجتاز الصحراء وصل إلى الرقة على نهر الفرات حيث كان يقيم الخليفة هرون الرشيد ؛ فإذا عبر نهر دجلة وصل

(*) وأقدم ما عرف من العقود المصنوعة على شكل حذاء الفرس عقد فى هيكل فى كهف ببلدة نازك فى الهند لعل تاريخه يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد(٨٦) . ثم استخدم هذا الطراز فى كنيسة مسيحية شيدت فى نصيبين بالعراق عام ٣٥٩ م .

(**) هذا من قول المقدسى وفى الأصل الإنجليزى « مائة سنة » ولكن المقدسى يقول سنة واحدة .

(†) وأتلفت النار أجزاء كثيرة من مسجد دمشق العظيم فى عام ١٠٦٩ ثم جدد بناؤه ، ولكن تيمورلنك أحرقه حتى لم يكد يبقى منه شىء فى عام ١٤٠٠ . ثم أعيد بناؤه مرة أخرى ، ثم أتلفته النيران إتلافاً شديداً فى عام ١٨٩٤ . وبعد هذا حل الجص والجير محل النقوش القديمة . وفى وسع الإنسان أن يشاهد حتى الآن النقش الذى كان يعلو إسكفة الكنيسة المسيحية ، والذى لم يمحه المسلمون . ونص هذا النقش هو « مملكتك أيها المسيح مملكة خالدة ، وسلطانك باق إلى أبد الدهر »(٨٨) .

إلى الموصل ، وعلى مسافة منها فى اتجاه الشمال الشرقى أيضاً تقع مدينة تبريز التى بلغت ذروة مجدها بعد ذلك العهد الذى نتحدث عنه . وإلى شرقها تقوم مدينة طهران (وكانت لا تزال وقئذ بلدة صغيرة) ، ثم تليها دامغان وبعدها — فى شرق بحر الخزز — تقع جرجان . وكانت هذه البلدة الأخيرة فى القرن العاشر الميلادى قاعدة إحدى الولايات الإسلامية ، واشتهرت وقتئذ بمن كان فيها من الأمراء المثقفين ، أشهرهم كلهم شمس المعالى قابوس ، الشاعر العالم الذى استضاف ابن سيناء فى بلاطه ، والذى ترك وراءه مدفناً له على شكل برج ضخم يعلو فى الجو ١٦٧ قدماً يعرف باسم جنبادى قابوس ، وهو البناء الوحيد الذى بقى حتى الآن من تلك المدينة التى بلغت فى أيامه درجة عظيمة من الرخاء وكثرة السكان . وعلى الطريق الشمالى المتجه نحو الشرق تقوم مدينة نيسابور ، التى لا يزال الناس يرددون اسمها فى شعر عمر الخيام ، وتليها مشهد المدينة المقدسة عند المسلمين الشيعة ؛ ثم مرو التى كانت فى وقت ما قاعدة لإحدى الولايات الكبرى ؛ ثم بخارى وسمرقند — وكانتا فى العادة بعيدتين عن منال أيدى الجباة . وعلى سلاسل الجبال الجنوبية تقع مدينة غزنة ، ويحدثنا الشعراء عن قصور أميرها محمود الغزنوى الفخمة ، وعن أبراجها العالية التى تطاول قمر السماء . ولا يزال يقوم فيها حتى اليوم « برج النصر » الذى شاده السلطان محمود ، وبرج آخر أجمل منه شاده محمود الثانى . وكان الإنسان إذا رجع نحو الغوب فى القرن الحادى عشر التقى بنحو اثنتى عشرة مدينة زاهرة فى إيران — هيراة ، شيراز (ذات الحدائق الغناء الذائعة الصيت والمسجد العظيم) ، ويزد ، وإصفهان ، وكاشان ، وقزوين ، وقوم وهمذان ، وكرمنشاه ، وسامانا ؛ ثم التقى فى العراق بمدينتى البصرة والكوفة العامرتين بالسكان . وكان السائح يشاهد فى كل مكان يمر به قبابا براقة ، ومآذن متلألئة ، ومدارس ، ودوراً للكتب ، وقصوراً ، وحدائق ، وبيمارستانات ، وحمامات ، وأزقة ضيقة مظلمة حيث يسكن الفقراء . ثم يصل المسافر آخر الأمر إلى بغداد

التى يتغنى بها الشاعر الأتورى فى شعر فارسى يقول :

طوبى لك يا بغداد مدينة العلم والفن ، التى لا يستطيع إنسان أن يجد بين مدن العالم كله مدينة أخرى تناظرها ، إن أرباضها لتنافس فى جمالها قبة السماء الزرقاء ، وإن مناخها ليضارع نسيم السماء الذى يبعث الحياة فى الأجسام ، وأحجارها تضارع فى تلألؤها الماس والياقوت . . . وإن شواطئ دجلة ومن عليها من الفتيات الحسان لتفوق بلخ ؛ وجناتها المليئة بالحور العين لتعدل فى ذلك كشمير ، وآلاف القوارب ترقص وتتلألأ فوق الماء تلألؤ أشعة الشمس فى الهواء(٥٩) .

وكان فى موقع بغداد مدينة بابلية قديمة ، وهى لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، وقد عثر فى عام ١٨٤٨ تحت مجرى نهر دجلة على قطع من الآجر منقوش عليها اسم نبوخذنصر . وازدهرت المدينة القديمة فى عهد الملوك الساسانيين ، ثم أنشئت فيها بعد الفتح الإسلامى عدة أديرة مسيحية ، معظمها للنساطرة . ويحدثنا المؤرخون أن الخليفة المنصور عرف من رهبان تلك الأديرة أن هذا الموقع معتدل الجو فى الصيف ، خال من البعوض الذى يكثر فى البصرة والكوفة ؛ ولعل الخليفة قد رأى أن من الحكمة أن يبتعد عن هاتين المدينتين المشاكستين ، اللتين كانتا فى ذلك الوقت البعيد غاصتين بالصعاليك الثوريين ؛ وما من شك فى أنه وجد فى موقعها هذا ميزة حربية ، فهو موقع أمين فى داخل البلاد ، ولكنه على اتصال مائى بجميع المدن الكبرى القائمة على النهرين عن طريق نهر دجلة والقنوات الكبرى المتصلة به ؛ وعن طريق هذا النهر والقنوات يتصل أيضاً بالخليج الفارسى وبجميع ثغور العالم . من أجل هذا كله نقل مقره هو من الهاشمية كما نقل دواوين الحكومة من الكوفة إلى بغداد ، وأحاط ذلك الموقع بثلاثة أسوار دائرية وخندق ، واستبدل ببغداد اسمها القديم ومعناه « هبة الله » اسما جديداً هو مدينة السلام ، واستخدم مائة ألف من العمال فى بناء أربعة قصور عظيمة من الآجر له ولأهله ولدواوين الحكومة : وكان يقوم فى وسط

المدينة قصر الخليفة المسمى « بالباب الذهبى » نسبة إلى بابه المذهب أو « القبة الخضراء » نسبة إلى قبته البراقة ؛ ثم شاد المنصور فى خارج أسوار المدينة على الضفة الغربية لنهر دجلة مسكناً صيفياً له عرف باسم « قصر الخلد » ، وكان هرون الرشيد يقيم فى هذا القصر معظم أيامه . وكان فى وسع من يقيم فى هذين القصرين أن يرى من نوافذهما مئات السفن تفرغ على أرصفة النهر أحمالها التى جاءت بها من نصف العالم المعروف .

وفى عام ٧٦٨ أنشأ المنصور قصراً ومسجداً على ضفة النهر الشرقية الفارسية لكى يستطيع ولده المهدى أن يتخذ له فى القصر مسكناً مستقلا . وسرعان ما نشأت حول هذين الصرحين ضاحية جميلة هى ضاحية الرصافة(*) التى كان يصلها بالمدينة المستديرة جسران قائمان على قوارب . وكان معظم الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون يقيمون فى هذه الضاحية ، ولهذا فإنها سرعان ما فاقت مدينة المنصور نفسها فى اتساعها و ثرائها ، وكان الناس بعد الرشيد إذا ذكروا بغداد فإنما يعنون بها الرصافة نفسها . وكانت شوارع ضيقة ملتوية ، أنشئت على هذا النحو لتقى الأهلين من وهج الشمس وتقوم على جانبيها الحوانيت الصاخبة ، تمتد من القصور الملكية إلى أحياء الأثرياء ، وكان لكل طائفة من طوائف الصناع شارعها الخاص أو سوقها الخاصة — فهذا حى بائعى العطور ، وذاك حى صانعى السلال ، وهنا حى صانعى الأسلاك ، وهناك حى الصيارفة مستبدلى النقود ، وذاك حى البزازين ، وهذا حى الوراقين وما إلى ذلك . وكانت بيوت الأهلين تقوم فوق هذه الحوانيت ومن ورائها . وكانت كل المساكن تقريباً ما عدا مساكن الأغنياء مقامة من اللبن ، تبقى ما بقى صاحبها حياً ولكنها لا تدوم كثيراً بعده . وليس لدينا إحصاء لسكان المدينة موثوق به ، والراجح أنهم كانوا يبلغون

(*) الرصافة ككناسة بلد بالشام ومحلة ببغداد ، وبلد بالبصرة ، وبلد بالأندلس ، وبلد بأفريقية . (المترجم)

٨٠٠ر٠٠٠ ، وإن كان بعض المؤرخين يقدرونهم بمليونين[٩٠] ؛ ومهما يكن عددهم فإن المدينة كانت فى القرن العاشر الميلادى أكبر مدن العالم على الإطلاق ، مع جواز استثناء القسطنطينية من هذا التعميم . وكان فيها حى للمسيحيين مزدحم بهم ، تقوم فيه كنائس ، وأديرة ، ومدارس ؛ وكان لكل من النساطرة ، واليعاقبة ، والمسيحيين أصحاب العقيدة الصحيحة ، أمكنة عبادتهم الخاصة بهم . وقد جدد هرون بناء مسجد أقامه المنصور ووسعه ، ثم جدد المعتمد بناء هذا المسجد نفسه وزاد مساحته ؛ وما من شك فى أن مئات من المساجد قد شيدت ليتعبد فيها سكان المدينة .

وبينما كان الفقراء يواسون أنفسهم فى حياتهم الشاقة بأملهم فى نعيم الدار الآخرة ، كان الأغنياء يستمتعون على الأرض بنعيم الجنة . ذلك أنهم شادوا فى بغداد أو بالقرب منها عشرات المئات من القصور الفخمة ، والبيوت ذات الحدائق ، والدور التى تبدو بسيطة من الخارج ولكنها كانت فى الداخل « لازوردا وذهبا » . وفى وسعنا أن نتصور ما كانت عليه من الفخامة من وصف لها بقلم أبى الفداء لا يكاد يصدقه العقل يقول فيه إن قصر الخليفة فى بغداد قد فرشت على أرضه ٢٢ر٠٠٠ طنفسة ، وعلقت على جدرانه ٣٨ر٠٠٠ قطعة من القماش المزركش و١٢ر٥٠٠ قطعة من الحرير[٩١] ؛ وكانت قصور الخليفة وأسرته ومساكن الوزير ورؤساء دواوين الحكومة تشغل فى المدينة الشرقية مساحة قدرها ميل مربع(*) . وبدأت منذ أيام جعفر البرمكى هجرة الطبقة الموسرة إلى بغداد حين شاد لنفسه فى الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة قصراً فخماً كانت عظمته من أسباب هلاكه . وقد حاول جعفر أن يتقى حسد هرون الرشيد فأهدى هذا القصر إلى المأمون ؛ وقبل الرشيد الهدية لابنه ، ولكن جعفر ظل يعيش وينعم فى « القصر الجعفرى » إلى آخر أيام حياته . ولما أخذت قصـــور المنصور

(*) أى أكثر من ستمائة فدان . (المترجم)

وهرون تنهار ، أقيمت فى مكانها قصور أخرى : وقد أنفق المعتمد على قصره المعروف « بقصر الثريا » (٨٩٢) ٤٠٠ر٠٠٠ دينار (أى ما يقرب من ٠٠٠ ر٩٠٠ر١ ريال أمريكى) : وفى وسعنا أن نتصور سعة هذا القصر إذا ذكرنا أنه كان فى اسطبلاته ٩٠٠٠ من الإبل والبغال(٩٢) : وشاد المكتفى بجواره « قصر التاج » (٩٠٢) ؛ وكان هذا القصر هو وحدائقه يمتد على رقعة من الأرض مساحتها تسعة أميال مربعة . وشاد المقتدر « بهو الشجرة » وكان سبب تسميته بهذا الاسم أنه كان فى البركة الموجودة بحديقته شجرة من الفضة والذهب ، على أوراقها وأغصانها الفضية تجثم طيور من الفضة ، تنطق ألسنتها بأناشيد آلية . وبز سلاطين آل بويه جميع أولئك الخلفاء فأنفقوا ٠٠٠ر٠٠٠ر١٣ درهم فى بناء قصر المعزية : وهكذا تعددت القصور وزادت فخامة ، حتى إذا استقبل المقتدر فى عام ٩١٧ سفراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين حكومته البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصراً ، وإيواناتها ذات العمد الرخامية ، وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقمشة مزركشة كبيرة الحجم يخطئها الحصر تكاد تغطى كل مكان فى الأرض والجدران ، وعشرات المئات من السياس ذوى الحلل البراقة ، وسروج الخيول الفضية ذات الأغطية المطرزة بخيوط الذهب والفضة ، وما فى الحدائق الواسعة من مختلف أنواع الحيوان البرى والأليف ، وما للخلفاء من قوارب لا تقل عن القصور أبهة وفخامة تجرى فى نهر دجلة وتنتظر أهواء الخليفة .

وكانت الطبقات العليا تعيش فى وسط هذا النعيم عيشة الترف ، واللهو ، والقلق ، والدسائس . فكان رجالها يذهبون إلى الميدان ليشاهدوا سباق الخيل أو لعب الجحفة ، ويحتسون الخمر المعتقة المحرمة ، ويأكلون الطعام المبتاع من أقاصى البلاد بأغلى الأثمان ، ويرتدون هم ونساؤهم أثواب الحرير المختلف الألوان المطرز بخيوط الفضة والذهب ، ويعطرون ثيابهم ، وشعرهم ، ولحاهم ، ويستنشقون رائحة العنبر والكندر ، ويزينون رؤوسهم ، وآذانهم ، ورقابهم ، ومعاصمهم ،

وسيقانهم بالحلى الثمينة . ويقول شاعر يتغزل فى فتاة إن رنين خلاخيلها قد سلبه عقله(٩٣) . ولم تكن النساء فى العادة يحضرن مجتمعات الرجال ، وكان يحل محلهن الشعراء ، والمطربون ، والسمار الفكهون ، وما من شك فى أنهم كانوا يتحدثون عن الحب ؛ وكانت الجوارى الغيد يرقصن حتى يصبح الرجال أسرى لهن . وفى المجتمعات التى كانت أكثر من هذه أدباً كان الناس يستمعون إلى أناشيد الشعراء أو إلى آيات القرآن الكريم . ومنهم من أنشأوا ندوات فلسفية كإخوان الصفا ، ويحدثنا المؤرخون عن نادى قائم حوالى عام ٧٩٠ مؤلف من عشرة أعضاء ، واحد من السنيين ، وآخر من الشيعة ، وثالث من الخوارج ، ورابع من المانوية(*) ؛ ومن شاعر غزلى ، وفيلسوف مادى ، ومسيحى ، ويهودى ، وصابئى ، وزردشتى . ويقول المؤرخون إن اجتماعات هؤلاء الأعضاء كان يسودها روح التسامح المتبادل ، والفكاهة الحلوة ، والنقاش الهادئ الذى يمتاز بالأدب والمجاملة(**)(٩٤) . ويمكن القول بوجه عام إن المجتمع الإسلامى كان مجتمعاً ذا أدب راق إلى أقصى حدود الرقى ؛ وما من شك فى أن الشرق من عهد قورش إلى لى هونج تشانج قد فاق الغرب فى الرقة والكياسة ؛ وكان من المظاهر التى تشرف بها الحياة فى بغداد أن الفنون والعلوم التى لا يحرمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد فيها من يشجعها ويأخذ بناصرها ، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة فى جميع الأنحاء ، وأن الهواء كان يردد أصداء الشعراء .

ولا يحدثنا المؤرخون بالشىء الكثير عن حياة الدهماء ، وكل ما نستطيع أن نفترضه هو أنهم كانوا يعملون على بقاء هذا الصرح الفخم بخدماتهم وكدحهم .

(*) أتباع مانى وهو رجل من أهل إكباتانا (همذان) (٢١٥ — ٢٧٦) ، وكان يقول إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة ، أو الخير والشر .

(**) ما أشبه هذا بالمجتمع الخيالى الذى يحدثنا عنه لويس دكنسن فى كتابيه « معرض الآراء الحديثة » و « العدالة والحرية » وقد ترجما إلى اللغة العربية . (المترجم)

فبينا كان الأغنياء يلهون بالآداب ، والفنون ، والفلسفة ، والعلم ، كان عامة الشعب السذج يستمعون إلى المغنين فى الشوارع ، أو يعزفون على أعوادهم وينشدون أغانيهم . وكان يسير بين الفينة والفينة موكب عرس يبدل من ضجيج الشوارع ورائحتها ؛ وكان الناس فى أيام الأعياد يتزاورون ، ويتبادلون الهدايا ، ويعنون كل العناية باحتساب قيمة ما يتبادلانه منها ، ويطعمون فى تلك الأيام بشهية أقوى من شهية الذين يطعمون فى صحاف الذهب . وحتى الفقير نفسه كان له حظ فى جلال الخليفة وفخامة المسجد ، ولم يكن محروماً من دريهمات من دنانير الخراج الذى كان يرد إلى بغداد . وكان يسير فخوراً معتزاً بأنه ابن العاصمة الكبيرة ، وكان فى قرارة نفسه يعد نفسه واحداً من سادة العالم وحكامه .